

لست وحدك!



دار النيل

لست وحدك!

Copyright©2015 Dar al-Nile

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

يوكسل جليبار

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

المخرج الفني

أنكين جينجي

غلاف

نوردوغان شكماشي

تصميم

ياووز يلماز - أحمد شحاتة

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6183-27-8

رقم النشر: 1009

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج - جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 002 01000780841

E-mail: info@daralnil.com

www.daralnil.com

القاهرة - 2015م

لست وحدك!

تأليف

محمد ترزي

ترجمة

أحمد كمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرِسْتُ

- ١ ما زال ضَمِيرُهُ حَيًّا.
- ٨ دُنْيَا الشَّاورِمَةِ.
- ١٥ تَقَاءُلُ بِالْخَيْرِ تَجِدُهُ.
- ٢٣ الصَّدِيقُ وَقْتُ الشَّدَّةِ.
- ٣٠ حِكْمَةُ الذَّبَابَةِ.
- ٣٧ الصَّلَاةُ مُنْجَاةٌ.
- ٤٥ لِلْكَوْنِ مُدَبِّرٌ.
- ٥٢ بَزْوُغُ فَجْرِ الْحَقِيقَةِ.
- ٥٨ الْمُنْحَةُ فِي الْمُنْحَةِ.
- ٦٤ سَوَالٌ عَجِيبٌ...!
- ٦٩ حُلُوْى الصَّيْفِ.
- ٧٤ الْغَنَى... غِنَى النَّفْسِ.

- الرضا مفتاح السعادة..... ٧٨
- ولكن... الباقيات الصالحات..... ٨٥
- لَسْتُ وَحْدَكَ!..... ٩٠
- ليلة البدر..... ٩٦
- في التَّائِي السَّلامَة..... ١٠١
- رؤيا الإمام..... ١٠٨
- صديقنا السمين..... ١١٤
- رغباتي أم مسؤوليَّاتي...؟..... ١١٨
- أُنقِذْنِي يا دكتور...!..... ١٢٣
- حَارِسُ الْقَصْرِ..... ١٢٩
- الوسواس القهري..... ١٣٥



ما زال ضميره حيًا

كاد قلبه يتحرّك من مكانه؛ لكونه يقوم بهذا الفعل للمرّة الأولى في حياته، فكّر لأسابيع، إلى أن أيقن أن هذه هي الحيلة المناسبة، غير أن قلبه لم يكن راضيًا عن ذلك.

جلس وأخذ يفكّر ويضع الخطط لتنفيذ هذا الأمر لساعات، ولم يستطع أن يتخلّى عن التفكير في عاقبته إذا أمسك به أحد.

شعر بالملل من التفكير في هذا الأمر طويلاً، وقال في نفسه: "ليحدث ما يحدث، فلم يعدّ يهمني الأمر"، ومن ثمّ قرّر تنفيذ الأمر الذي وضعه نُضِبَ عينيه؛ بُغِيَة عدم التفكير في أيّ شيء بعد ذلك.

كان يشعر بالحزن الشديد من جرّاء تلك الحال التي وصل إليها؛ لأنه سيأخذ شيئاً غير مملوك له لأول مرّة في حياته، أي سيسرق شيئاً من شخص آخر.

سار في الشارع، لكنه لم يكن يعلم إلى أين، ومن أجل ماذا يسير، وقال في نفسه: "ستكون المرة الأولى والأخيرة"،

ثم نزلَ عن الرصيف؛ كي يعبرَ إلى الجهةِ المقابلةِ، وعندما وصل إلى منتصف الطريق، أدرك أنه يسير في الطريق المخصصة للسيارات التي أخذ أصحابها في استخدام آلات التنبيه للفت انتباهه؛ مما جعله يُسرّع من خطاه.

كان يشعر بالجوع منذ أن طُرِدَ من عمله، لم يكن ليُقدِّم على ارتكاب جريمة السرقة من أجل نفسه، بل أقدمَ على ذلك من أجل أبنائه، فهو لم يستطع أن يفتحَ أحدًا بخصوص حالته الماديّة لطلب المساعدة.

خيّم الظلام بالكامل على شوارع المدينة، وعندما حان الوقت الذي كان ينتظره، خرج من المكان الذي اختبأ به، واقترب من المثجّر وشعور الخجل يساوره، بل يطارده، فهذا المكان هو مطعم صغير وضع نُصِبَ عينيه سرقةً.

نظر حوله قبل أن يُخرج المِفْكَ الذي كان في جيبه، ولم يكن أحدٌ يسيرُ في الشارع في هذه الساعة، ظلَّ حينها أن هذا الوضع سيريخُ ضميره، لكن إحساسًا كان بداخله يعصر قلبه وكأنَّ أحدهم يراقبه.

فقال في نفسه: ”لماذا تخاف؟“، لكن قلبه لم يطمئن لهذا الأمر، وحدّث نفسه قائلاً: ”ماذا لو شاهدني أحد؟“، وصار جسّمه

مثلَ الثلج، وساوره خوفٌ من أن يراه أحد وهو على تلك الحال، وكان إحساس لا يعرفُ مصدرَه يقول له: ”إنَّ أحدًا يتعقبُك“.

أخرجَ المِفكُ الذي كان يضعُه في الحيب الداخلي لسُتْرته، وكَسَرَ قُفْلَ البابِ بضربةٍ واحدةٍ بمِفكِّه، وبينما كان يدخلُ من بابِ المطعم، قال بصوت خافت: ”سامِخني يا أوسطا عثمان!“، وشَعَرَ في تلك اللحظة أن شيئًا قد كُسِرَ بداخلِه مع الباب المكسور، وأَحَسَّ بوجعٍ شديدٍ في قلبه.

أغلق البابَ وراءَهُ بعدَ دخولِ المطعم، فهو الآن داخلِ المطعم، واقترب في صمتٍ من المنضدة التي تُوضَع عليها الخزينة، ولا يزال يُراوِدُه شعورٌ بأن هناك أحدًا يُراقِبُه، فنظر إلى يمينه ويساره مجددًا، فوجد أن الضوء الموجودَ أعلى الآلة قد تُرك مفتوحًا تجنُّبًا لأي أعمال سرقة.

ثارت ثائرتَه، وقال في نفسه: ”مَنْ سيراني في ظُلْمة الليل الحالِك!“، لكن الشعور الذي كان يراوده -بأنه مراقَب- ما زال يلازمه.

أَحَسَّ أن عليه الإسراعَ، فاقترَبَ ووقَفَ أمامَ آلة تسجيل النقود، وبينما يَهْمُ بفتح الآلة، لفتت انتباهَهُ عبارةٌ مكتوبةٌ بأحرفٍ كبيرةٍ على لافتةٍ بجوار الآلة، جاء فيها: ”انتبه يا أوسطا عثمان!“.

فقال في نفسه: ”ولماذا سينتبه؟!“، فشعر بشغفٍ دفعه لقراءة بقية العبارة، فنظر إليها مرة أخرى وقرأ: ”لا تُخطئ في حساب مستحقات العميل“.

وكان صاحب المطعم قد كتب هذه العبارة لتذكير نفسه، وعلّقها بجوار آلة تسجيل النقود في مكانٍ لا يراه العميل، ولقد تأثر هذا اللص الذي أقدم على سرقة المطعم بمشاعر «أوسطا عثمان»، وخوفه من أن يحسب مستحقات العميل بطريقة خاطئة. لم يستطع اللص أن يمدّ يده إلى خزانة النقود، وتولدت لديه رغبة غريبة في متابعة قراءة عبارة «أوسطا عثمان» التي جاء فيها: ”مَنْ خَلَقَ الْعَيْنَ يَرَاهَا وَيَرَى مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ، ثُمَّ يُعْطِي وَيَهَبُ“، نعم، إن صانع النظارات يتأكد أولاً من ملائمة النظارة لوجهك، ثم يقوم بتركيب العدسات عليها، فمن أعطاك الأذن يسمع ما تسمعه بالطبع، ثم يهبك إياها، وقس على ذلك سائر حواسك الأخرى، وهو لا يعطي لك حاسة أو خاصية لا يتمتع بها، فمن أعطاك البصر هو أيضاً بصير، ومن وهبك العين يراها ويرى بها ما تراه أنت كذلك.

أنهى اللص قراءة العبارة إلى آخرها دون أن يشعر، ثم سيطرت عليه حالة من الصمت الرهيب وعدم الحركة، وبهذه

الحالة استطاع الوصول إلى مصدر الإحساس الذي كان يشعر به وهو أن أحدًا يراقبه.

ولا شك أن هناك ربًّا يرانا ولا تُذكره أبصارنا، وعندما عَلِمَ هذه الحقيقة، أو بالأحرى تذكَّرها، قرَّرَ عدم مواصلة ارتكاب ما يفعل من خطأ.

أَنَّبَه ضميره من ناحية، ومن ناحية أخرى شَعَرَ بطمأنينة وسعادة؛ لأنه تراجع عن متابعة السرقة.

خطر بباله أن يهرب من المطعم في أسرع وقتٍ ممكن، فوضع المِفْكَ في جيبه، ثم خرج من المطعم بخطواتٍ سريعة، وكان يهرولُ دون أن ينظر خلفه، وابتعد عن مطعم أوسطا عثمان لمسافة شارع.

تباطأت خطواته بعد مدَّة، وعندما وضع في حسابانه الضرر الذي ألحقه بباب المطعم جنبًا إلى جنب مع ما قرأه في اللافتة التي رآها داخل المطعم، وقف وقال في نفسه: ”إن من يرى كلَّ شيءٍ رأيًا وأنا أكسر ذلك الباب“، ثم عاد إلى المطعم وجلس أمامه، وانتظر مجيء أوسطا عثمان حتى الصباح، فقد عزم على الاعتذار إليه، وأن يَعِدَه بأن يدفع له تكاليف الخسائر التي تسبَّب فيها بمجرد حصوله على أول نقودٍ يُرزق بها.

وصلَ أوسطا عثمان إلى المطعم في الصباح الباكر، واندھش عندما رأى البابَ مكسورًا وحالة الشاب الجالس بجواره، وكانت نظرات هذا الشاب المكتئب الذي يجلس على الأرض في حالة من الخذلان، تحكي كلَّ شيءٍ، فأنهضه أوسطا عثمان ودعاه لدخول المطعم.

بدأ الشاب بسرد تفاصيل ما حدث، فقابله أوسطا عثمان فقط بابتسامة علّت وجهه، ثم عرض على صديقه الجديد العملَ معه في المطعم، وقدّم له بعض النقود. تعجّب الشاب كثيرًا من هذا العرض والنقود التي منحه إياها أوسطا عثمان، وعندما لاحظَ الأوسطا خجلَ الشاب من مَدِّ يَدِهِ لأخذ النقود، قال له:

- خذ هذه النقود، فهي أول سُلْفَةٍ سَأَقْطِطُهَا من راتبك.

ثم وضعَ النقودَ في جيبِ الشاب.

وكانت هذه النهاية غيرَ متوقّعة تمامًا للشاب؛ حيث إن صاحب المطعم الذي كَسَرَ بابَه من أجل السرقة وقَفَ أمامه يَعرِض عليه العملَ معه، بل ويمنّحه المالَ أيضًا، وأمّا أوسطا عثمان فلم يرغب في إطالة هذا الموقف المخجل للشاب، فقال له:

- اذهب الآن، واسترخِ في بيتك، واشترِ لأبنائك ما تريد،
ثم تعالَ غداً في الصباح الباكر لتبدأ العمل.
لم يُصدِّق الشاب ما يحدث معه، فأمسك يد أوسطا عثمان
وقبَّلها، ثم خرجَ من المطعم وهو يجري ويقفزُ كالطفل الصغير.
وأما أوسطا عثمان فكان يمسحُ دموعه التي لم يستطع
السيطرةَ عليها وهو يشاهدُ الشابَّ وهو يركضُ فرحاً في الشارع.



دُنْيَا الشَّاورِمَة

نَفَذَ الضَّوُّ مِنَ الزَّجَاجِ إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ، وَأَخَذَ يَنْعَكُسُ عَلَى الْجِدْرَانِ، وَيُظْهِرُ حَيًّا وَيُخْتْفِي حَيًّا آخَرَ، كَالْأَطْفَالِ الَّذِينَ يُهْرَوُلُ بَعْضُهُمْ وَرَاءَ بَعْضٍ، وَعَلَى السَّرِيرِ الْمَوْجُودِ فِي رُكْنِ الْغُرْفَةِ تَوْجِدُ وَسَائِدَ مَزْخَرَفَةٍ تَتَّخِذُ مَكَانًا لَهَا وَكَأَنَّهَا أَطْفَالٌ يَجْلِسُونَ فِي هَدْوٍ وَسَكِينَةٍ، وَالْأَزْهَارُ الْمَصْطَفَّةُ جَنَّبًا إِلَى جَنْبٍ تُضْفِي جَوًّا بَدِيعًا عَلَى الْغُرْفَةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى رَائِحَةِ الرِّيحَانِ الْمَوْجُودِ فِي قِطْعَةِ الْقِمَاشِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي شَعَلَتْهَا السَّيْدَةُ حَسِيَّةٌ بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ...
كَانَ هَارُونُ مُسْتَلْقِيًا عَلَى جَنْبِهِ عَلَى الْأَرِيكَةِ كَالْقِطْعَةِ الْمُسْتَلْقِيَةِ بِجَوَارِ الْمَدْفَأَةِ، يَنْظُرُ إِلَى الظَّلَالِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى الْجِدَارِ بِمَلَلٍ وَضَجَرٍ.

لَمْ يَكُنْ هَارُونُ يَرَى مَا حَوْلَهُ جَيِّدًا؛ بِسَبَبِ زِيَادَةِ حَرَكَةِ رَمُوشِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَضَاقِقُهُ كَثِيرًا، فَهُوَ فِي انْتِظَارِ الْحَصُولِ عَلَى نِظَارَتِهِ الْجَدِيدَةِ الْيَوْمَ، وَبَعْدَ أَنْ تَنْهَدَ تَنْهَدًا عَمِيقًا مِثْلَ كَبِيرِ الْحَدَادِ، قَالَ: ”أَفِّ! لِمَاذَا لَا أَرَى فِي هَذِهِ السَّنِّ الصَّغِيرَةِ وَكَأَنِّي عَجُوزٌ قَدْ أَدْرَكَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ! لِمَاذَا الْآلَامُ دَوْمًا تَخْتَارُنِي أَنَا بِالذَّاتِ؟!“.

ثم تَحَرَّكَ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وَتَوَقَّفَ مَكَانَهُ فَوْقَ الْأَرِيكَةِ.

التفتت إليه والدته، وقالت:

- نعم، هل تقول شيئاً يا هارون؟

فَرَكَّ هَارُونُ عَيْنَيْهِ قَائِلاً:

- لا يا أمي، كنتُ أَحَدِثُ نَفْسِي.

كان قلب السيدة حسية يعتصره الألم لرؤية ابنها هارون مكتئباً، وكانت تشعرُ بِشَغَفٍ لمعرفة ما الذي يضايقه، لكنها خشيت أن تسأله حتى لا يردَّ عليها ردًّا غير مناسب، فكلَّما سألتُه عن شيءٍ يكونُ رَدُّه ”لا شيء يا أمي“، وَلَعَلَّهَا بِطَبِيعَةِ ابْنِهَا، لم تكن السَّيِّدَةُ حَسِيَّةً تَرْغُبُ فِي الضَّغْطِ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

شَعَرَ هَارُونُ بِالْمَلَلِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى سَقْفِ الْغُرْفَةِ، فَتَنَاولَ الْوَسَادَةَ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ رَأْسِهِ وَوَضَعَهَا عَلَى عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يُسْهِمِ ذَلِكَ فِي زَوَالِ هَذَا الشُّعُورِ بِالْاِكْتِسَابِ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تُؤَلِّمَانِهِ وَكَأَنَّهُ يَضَعُ أَصَابِعَهُ فِيهِمَا، أَدْرَكَ هَارُونُ بَعْدَ مَدَّةٍ أَنَّهُ لَا جَدْوَى مِنَ الْإِنْتَظَارِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَنَهَضَ مِنْ عَلَى الْأَرِيكَةِ، وَقَالَ:

- أَخْبَرَنِي صَانِعَ النِّظَارَاتِ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ بَعْدَ سَاعَتَيْنِ

لَا سِتْلَامَ نِظَارَتِي الْجَدِيدَةِ.

ثم أَخَذَ سِتْرَتَهُ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْبَابِ، فَقَالَتْ وَالدَّتْ:

- خيرًا يا ولدي، إلى أين أنت ذاهب؟

فقال هارون وهو يرتدي سترته:

- سأذهب لاستلام نظارتي.

ولما خرج من المنزل وجد السماء تُمطر مطرًا خفيفًا،

وقد عانى كثيرًا كي يرى قطرات المطر الساقطة من السماء،

ثم تَمَتَّمَ قائلاً:

- ما هذا الحظ؟! عيناَي تؤلمانِي، ولا أرى إلا بصعوبة،

وأشعر بضجرٍ شديدٍ، وعلاوةً على ذلك فإن المطر يهطل الآن.

ثم تبادرت إلى ذهنه بعض الأسئلة من قَبِيل: ”لماذا كُلُّ

شيءٍ يحصل بشكلٍ متتابعٍ هكذا؟ لماذا لا يمكننا أن نعيش

في هذه الحياة دون آلامٍ أو مشاكلٍ؟ لماذا يصيبننا هذا الألم؟“

سمع في هذه الأثناء صيحاتٍ تقول: ”الدنيا دَوَّارة! الدنيا

دَوَّارة!“، فأخرجته من جوِّ الأفكار التي كانت تسيطر على عقله،

ثم قال:

- نعم هي دَوَّارة، أعلم ذلك، ولكن هل هذا يستلزم الصياح

لهذه الدرجة؟ إنها الدنيا؟

تقدَّمَ هارون نحو مصدر الصوت، فإذا به يرى نادلاً يصيح

أمام المطعم الذي يعمل به، فأذرك حينها أنه يسيرُ أمام مطعمٍ

لبيع الشاورمة، فضحك على نفسه؛ لأنه فَهَمَ ما قاله النادل خطأً، وفي تلك الأثناء شعر بالجوع، وكان نادل ذلك المطعم -الذي لم يلحظه قبل ذلك- يصبحُ من أجل جذب العملاء.

اقترب هارون من المطعم، وحاولَ قراءةَ العبارات المكتوبة أمام واجهته بصعوبةٍ بالغةٍ، وكان مكتوبًا عليها: ”شاورمة بالبسبوسة“.

وعندما استطاع قراءة العبارة المكتوبة على واجهة المطعم بالكامل، اعتثرهُ حالة من الاندهاش، فرك عينيه، ثم نظر إلى الواجهة مرةً ثانيةً، وعندما قرأ الشيءَ ذاته مجدداً، قال في نفسه: ”شيء عجيب! يبدو أن هذا نوع جديد من الشاورمة“.

وحينما قرأ أسماء أصناف المأكولات الأخرى ازدادت دهشته: ”لحمٌ معجونٌ بالعسل، الكفتةُ النيئةُ بالأرزِ والحليب، كبابٌ بالدبس، بلحُ الشام بالمخلل“.

لم يستطع «هارون» أن ينظر إلى أسماء الأطعمة أكثر من ذلك، وبينما هو يعودُ للخلف، قال في نفسه: ”لا لا! هناك شيءٌ عجيب في هذا اليوم، ما هذا المطعم الغريب؟! لا يوجد أيّ طعام من النوع الحارّ أو المالح، كلّها أطعمةٌ حلوةٌ“.

تعجّب هارون كثيراً من أسماء المأكولات، كما سيطرت

عليه حالة من الاندهاش؛ بسبب اسم المطعم، شعر بالخرج من دخول المطعم وسؤال النادل عن الأُطعمة، واعتقد أن النادل سيستَهزئُ بكلامه، وأدرك أنه من المضحك أن يقف أمام مطعم ليس به طعام حارّ أو مالح، وقد نسي عينية اللتين تؤلماناه، وفي هذه الأثناء شاهد نادل المطعم الذي انقطع عن الصياح لجذب العملاء، ومن ثمّ دعاه لدخول المطعم قائلاً:

- تفضّل يا سيدي، لدينا بالداخل أنواعٌ من الحساء الساخن اللذيذ.

فعاجله هارون بالرد قائلاً:

- طبعًا طبعًا! فأنتم قد نثرتم فوق هذه الأنواع من الحساء كمّيّة كبيرة من السكر المسحوق.

وكان النادل قد صمّت أذناه عن السمع؛ بسبب صياحه لجذب العملاء، فدنا من هارون، وقال له:

- ماذا طلبت يا سيدي؟

فردّ عليه هارون قائلاً:

- لا، لم أطلب شيئًا! ركّز أنت في عملك... أنا لا أعلم ماذا أقول.

ثم عاود السّير مجدّدًا.

رفع النادل يَدَه لتوديع هارون، وقال:

- حسنًا يا سيدي، لا تنزعج مِنِّي.

فرد هارون في نفسه قائلاً: ”انظر! لقد بدأ بالتودُّد إلَيَّ الآن“.

ثم أسرع في خطواتِه، وهَمَّهم وهو يسيرُ:

- لقد أصبحتُ أَشتهي الأكلَ الحارَّ، يا لها من أيام، ما هذه

الحالة الغريبةُ التي صرْتُ عليها؟!

وبينما هو يتقدَّم في طريقه، سمع نادلَ المطعم يصيح مجدِّداً:

- دنيا الشاورمة، دنيا الشاورمة.

تقدَّم الوقت سريعاً دون أن يشعُرَ هارونُ، وقال في نفسه

وهو يتتبع عن المطعم: ”أعتقدُ أن هذه هي الدنيا التي أبحثُ

عنها، ليس بها أيُّ شيء مُرٍّ، فأصحاب المطعم غيَّروا حتى طعم

المخلل، وأضافوا إليه بلح الشام!، لكنَّ مَعِدَتُهُ لَمْ تتحمَّل حتى

ما قاله، وحاولَ نسيانَ كلِّ هذه الأشياء سريعاً.

عندما وصل إلى صانع النظارات، وجَدَه قد انتهى من

إصلاح نظارته، وما أن لبس النظارة حتَّى أحسَّ بتخفيفِها الآلام

التي كان يشعر بها، فالآن هو يشعُرُ بالراحة أكثر من ذي قبل،

وأدرك وقتها كيفَ أنَّ الرؤيةَ شيءٌ جميل.

لقد ازداد هطولُ الأمطار عندما كان هارونُ عائداً إلى المنزل،

وعندما مرَّ عائداً من أمام مطعم «دنيا الشاورمة» لاحظتُ عيناه مجدداً قائمةَ المأكولاتِ، وأدركَ هارونُ حينها أنه لم يقرأ أسماءَ الأطعمةِ كلاً على حدةٍ، بل قرأها مُتَّحِدةً، فهي على النحو التالي:

- بسبوسة

- شاورمة

- أرز بالحليب

- كفتة

- كباب

- بلح الشام

- مخلل

- إفطار الصباح (عسل، دبس، مربى، زبدة...)

ضحك هارون على فِغْلته تلك، ثم تَوَجَّه صوب البيت والأمطارُ تَهْطِلُ بغزارةٍ، لكنه الآن لا يشتكي من المطر، بل إنه بدأ يستمتعُ بقطراتِهِ الغزيرة.

ولما تذكَّر هارونُ شكواه في الصباح، أيقنَ أن هذه الدنيا فيها الحلو والمرُّ، والأيامُ السعيدةُ والحزينةُ، وأنه كما أنَّ الصحةَ مهمةٌ، فإن المرضَ أيضاً لا يستهان به.

وبينما كان المطرُ يُدْخِلُ الطمأنينةَ إلى قلبِ هارونَ، أخذَ يَحْمَدُ اللهَ على كل شيء في هذه الدنيا حُلُوها ومُرِّها.



تَفَاءَلُ بِالْخَيْرِ تَجِدْهُ

أشرقت الشمس، لكنَّ الجوّ كان لا يزال باردًا، فقد شهدت المدينة موجةً من الصقيع في الليل، فقد أصاب التجمُّدُ كلَّ شيءٍ.

بادرَ السيد أحمد إلى النهوض من فراشه من أجل الذهاب إلى العمل، لكنَّ برودةَ الجوّ حالت دون ذلك، أخرجَ أصابع قدميه خارجَ اللحاف قليلاً، ثم أدخلها ثانية، فقال والزفيرُ يخرجُ من فمه: ”يا إلهي ما هذه البرودة!“، أرادَ البقاءَ في السريرِ لبضع دقائق من أجل أن يشعُرَ جسدهُ بالدفءِ تحت اللحاف.

في هذه الأثناء سمع صوت طَقْطَقَةٍ، فَفَهِمَ أن زوجته تُعدّ طعام الإفطار في المطبخ، نهَضَ من فراشه بعدما أدرك أن بقاءه لمُدّة أطول سيؤخّره عن عمله، فارتدى ملابسه، وخرج من الغرفة.

ثم ذهب إلى الحمام كي يغسلَ وجهه، لكنّه آثر غسيلَ يديه بسرعة، ثم مسحها بالمنشفة، خشي أن يغسلَ وجهه من شدة البرد، فقد أدركَ ذلك عندما لامستُ يداه مياه الصنبور شديدة البرودة، ثم مضى مُسرّعًا إلى المطبخ، وما أن دخله، حتى وقعت

عيناه على المدفأة، فتملّكه الغضب، وتحركت شفّته، بيد أنه لم يدرك أكان يتفوّه بكلمات أم كانت أسنانه تَصْطَكُ ببعضها من شدّة البرد؟ اعتقدت زوجته أنه يتحدّث إليها، فبادرته قائلة:

- نعم يا عزيزي، هل قلتَ شيئاً؟

- لا يا عزيزتي، ما هذا العطل الذي أصاب المدفأة في هذا البرد الشديد؟

- لا أعلم، لكن بالتأكيد أن الله حكمة في هذا، لا تنزعج.

- ما الحكمة في ذلك؟ لقد أصبحنا نشعرُ بالبرد القارس داخل المنزل كما ترين، وهل لديّ وقت فراغٍ كي أتصلَ بخدمة الصيانة وأنظرهم حتى يصلحوا العطل؟

- لا تقلق، سيأتي عمّال الصيانة اليوم لإصلاحها، لن يحدث شيء إن قضينا اليوم دون تدفئة، سأرتدي بعض الملابس الثقيلة، وإن اشتدّ البرد أكثر، سأذهب للجلوس عند الجيران، وحتى ذلك الحين يكون فريق الصيانة قد وصل وأصلح الأعطال بالمدفأة.

ارتشف السيد أحمد رشفةً من كوب الشاي بعد أن حرّك الملعقة داخل الكوب بصعوبةٍ بالغةٍ من شدّة البرد، ثم قال:

- لا فائدة من ارتداء الملابس الثقيلة في هذا البرد الشديد... انظري إلى أسناني تصطك ببعضها وكأنها آلة موسيقية من شدّة

البرد! هل بإمكاننا أن نشعر بالدفع بمجرد ارتداء الملابس الثقيلة؟!
 - لا تَقُلْ هذا يا عزيزي، فَكِّرْ بهدوءٍ قليلًا، هناك حكمة لذلك
 لا محالة.

- على أَيَّةِ حالٍ يا حبيبتي، لا أريدُ أن أدخل معك في جدال
 ثانية.

ووضع السيد أحمد بعض اللقيمات في فمه، وارتشف رشفةً
 من كوبِ الشاي، وذهب إلى الحمام وهو يحمل كوب الشاي
 بيده ويتلمّس الدفع من حرارته، ومضى مسرعًا خشيةً أن يتأخر
 عن العمل، وهو في تلك الأثناء يتابع الحديث إلى زوجته:

- آه، لقد احترق فمي! ما هذا يا عزيزتي؟ حتى كوبُ الشاي
 يغلي، هل يمكن أن يكونَ الشاي ساخنًا لهذه الدرجة؟!
 - الآن أصبحتُ أنا المذنبة بسبب هذا أيضًا!

- علي أية حال، سأخرج الآن، أعانك الله! إن حدثَ شيءٌ
 اتصلي بي على الهاتف، مع أنني أعطيتُ شركة الصيانة رقمَ
 هاتفي في العمل، فسيتصلون بي.

وبينما يَهْمُ بالخروج من المنزل، انزلت إحدى قدميه وكاد
 يسقط؛ بسببِ الصقيع المتراكم على الأرض، وحينها قال:
 - كادتُ رجلي أن تنكسرَ بسبب الصقيع!

ثم بدأ يسير بطريقة أكثر حذرًا.

بيد أن معنويات السيد أحمد انهارت؛ بسبب تعطل المدفأة، وأصبح يثور على أي شيء، ثم تذكر ما قاله أصدقائه: ”لا تفهمنا خطأ يا سيد أحمد، لكنك تغضب سريعًا لأتفه الأشياء، اهدأ قليلًا، وحاول تغيير نظرتك إلى الأحداث، انظر دائمًا إلى ما حولك بعينين باسمتين، وعوّذ نظرك على رؤية كل ما هو جميل، وإلا فإن طريقتك هذه في التعامل مع الأحداث ستسبب أحيانًا في فهمك الخاطئ لما يحدث حولك“. ثم تبسم ضاحكًا، ومضى في طريقه.

قالوا له ذلك كثيرًا، لكن تصرفاته لم تكن قابلة للنقاش بالنسبة إليه، فقال في نفسه: ”يريدونني أن أرى كل شيء جميلًا، وأن أفكر بإيجابية؛ كي أصبح سعيدًا، هيهات!“ ثم كرر هذه الكلمات كثيرًا حتى بدأ يلوّكها في فمه كالعلكة، بدا كأنه يضحك، لكن براكين كانت تثور بداخله دون سبب معلوم، وكأنه يتحين فرصة ظهور أحدهم أمامه ليصيح في وجهه.

واصل إصراره على مقولته التي يرددها دائمًا: ”لا يمكن معاملته الناس معاملة حسنة، يجب عليّ زجرهم، ومعاملتهم بقسوة حتى يُنفذوا ما أريد“، سار السيد أحمد بسرعة إلى

محطّة الحافلات حتى لا يُضَيِّع مزيداً من الوقت، وعندما عانى في الحافلة من الأشخاص الذين يدوسون على أطراف قدميه، والازدحام المتكرر في إشارات المرور؛ زاد ذلك من سُخْطِهِ عند دخوله مقرّ عمله.

خطرَ بباله إكمال الأعمال التي تركها قبل أن يُتَمَّها في الأيام الماضية، على الرغم من انهماكه في العمل طوال اليوم لم يَنْجُ من جوِّ التوتر الذي سيطر عليه طوال الليل، وعلى الرغم من أن أصدقاءه في العمل داعبوه قائلين: ”خيرًا إن شاء الله، ما لك اليوم مبتهجًا سعيدًا؟“ إلا أنه لم يتخلّص من توتره.

جالت في خاطره طوال اليوم عباراتٌ ناقمةٌ على الأحداث التي يُمَرُّ بها، من قبيل: ”لماذا ينبغي لي التصرفُ بِسِمَاحةٍ مع ما يحدث؟ لماذا عَلَيَّ أن أبتسم؟ ماذا سأكسبُ إن فعلتُ ذلك؟ من يريد أن يحبَّنِي فليحبني بطبعي هذا! هل يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ التَّبَسُّمُ عندما تتعطَّلُ المدفأةُ في الصباح؟ أم عَلَيَّ التَّبَسُّمُ عندما أَحْشِرُ فِي الرِّحَامِ داخلَ الحافلةِ أثناءَ الذهابِ إلى عملي؟ أم ينبغي لي التصرفُ بِحَسَنِ خُلُقٍ مع مَنْ يركبُ معي الحافلةَ وفُؤْمُهُ تفوحُ منه رائحةُ الثوم الذي أكله؟ ثم يقولون لي: لا تغضب!“.

انكبَّ السيد أحمد يمارس عمله حتى تخلّص من كافّة هذه

الأفكار، إلى أن رنَّ جرس الهاتف مرَّات عديدة؛ مما جعله ينتكس ويعود إلى حالته العصبية التي لازمته منذ الصباح، وعندما لم يردَّ أحد على الهاتف، التفت إلى الطاولة التي عليها الهاتف، وحينها أدرك أنه لا أحد غيره جالسًا في المكتب؛ فجميع أصدقائه قد غادروا مقرَّ الشركة عندما انتهت ساعات العمل الرسمية، فقال بعصبية:

- لماذا رنَّ هذا الهاتف طويلًا هكذا؟!

نسي حتَّى العمل الذي كان منشغلًا به، ونهض مسرعًا من مكانه قائلاً:

- سأرد على الهاتف وألْقِن هذا المتصل درسًا لن ينساه أبدًا، كان عازمًا على أن يصيح في وجه من يتصل، ويقول له: "ما الذي تفعله يا صاح؟! عليك ألا تُصِرَّ على الاتصال ما لم يَزِدَّ عليك أحد، لماذا تُكرِّر الاتصال وتزعجنا، كالطفل الذي اشترى له أبوه صَفَّارَةً جديدة؟!".

رفع سماعة الهاتف، فإذا بالمتصل يقول:

- أريدُ التحدُّث إلى السيّد أحمد لو سمحت.

وعندما سمع كلام المتصل، نسي كلَّ ما كان يفكِّر فيه.

- نعم، أنا أحمد.

- نعم، يا سيدي، لقد جئنا إلى منزلكم، ولم نجد أحداً يفتح لنا الباب، ماذا علينا أن نفعل الآن؟
 - هل يوجد أحدٌ في المنزل؟!
 ... -

خشي السيد أحمد أن يكونَ حدثٌ شيءٌ لزوجته، فكَّر قليلاً، وخمَّن أن تكون قد ذهبت إلى الجيران كما قالت في الصباح، فقال لمندوب شركة إصلاح الأعطال:

- انتظروا قليلاً، سأطلبُ من زوجتي أن تفتحَ لكم الباب حالاً، وأنا سأحاولُ العودةَ إلى المنزل.

اتَّصَلَ بجاره، وعندما علم أنَّ زوجته قد ذهبت عندهم للتدفئة أبلغها أن فريقَ الصيانة ينتظرون أمام الباب، وطلب منها الذهاب إلى المنزل من أجل فتح الباب لهم، ثم غادر المكتب مسرعاً عائداً إلى المنزل، وفي طريق العودة تذكَّر تعصُّبه في الهاتف، فضحك على حاله.

وعندما وصل إلى المنزل وجد فريقَ الصيانة قد أصلحَ أعطالَ المدفأة، وكانوا على وشك المغادرة وابنه الأكبر يودعهم، استطاع السيد أحمد أن يسمع آخر كلماتِ قالها فريق الصيانة، والتي جاءت على النحو التالي:

- لحسن حظكم أنكم اتصلتم بنا حتى نأتي لإصلاح المدفأة.
فقال السيد أحمد في نفسه: ”طبعاً هذا جيد لكم؛ لحصولكم
على مبلغ كبير من المال نظير إصلاح المدفأة“.

فَطَنَ السيد أحمد إلى أن ما حدث لم يكن كما كان يعتقد؛
لأنه عندما دخل المنزل علم أن عُطِّلَ المدفأة حدث نتيجة انسداد
المدخنة من جراء سقوط عُشٍّ طائر بداخلها، وهو ما كان سيؤدي
إلى حدوث تسرب في الغاز وموت كل أهل المنزل إذا لم يتصلوا
بشركة الصيانة.

بالإضافة إلى أن فريق الصيانة لم يتقاضوا قرشاً واحداً نظير
إصلاح المدفأة؛ لأنّ الضمان كان لا يزال سارياً.

أدرك السيد أحمد في ذلك اليوم أنه أخطأ مرةً أخرى في تقييم
حجم الأمور، وشعر بالأسى على حاله المضحك، فكّر في الحالة
التي أصبح عليها؛ بسبب إصراره على العيش في عالم الأوهام،
وعدم النظر بتفاوتٍ واستحسانٍ إلى الناس والأحداث، ولم يكن
يتوقع أن يصل به الأمر إلى تلك الحال، لا سيما عندما كان من
حواله ينصحونه بقولهم: ”إذا نظرت إلى ما حولك بنظرة تفاؤل
ستفكر بشكل أفضل، وحينئذ ستستمتع بحياتك كما يجب“.



الصديق وقت الشدة

أشجارُ العزعر^(١) المُمَايِلَةُ بجوارِ مَجْرَى النهرِ المُتَدَقِّقِ
والمُتَعَرِّجِ كالطريقِ، وأشجارِ الصَّفْصَافِ^(٢) التي تُشَبِّهُ الطِفْلَةَ
التي يُحَرِّكُ الهَوَاءُ شَعْرَهَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً... وعُواءُ الذِّئَابِ القادمةِ
من وراءِ الجبالِ... وعَبِيرُ الأزهارِ الجميلةِ التي تَأْسِرُ القلوبَ...
كُلُّ هذهِ الأمورِ لم يكنِ عثمانُ معتادًا عليها، فما كان يعرفه
جَيِّدًا هو الغسيلِ المتدَلِّي من شرفاتِ المنازلِ، وصناديقُ القمامةِ
المتراكمةُ في أركانِ الشوارعِ، ورائحةُ احتراقِ الجازولين^(٣) التي
تفوح من عوادمِ السيارات.

(١) العرعر: نوع من أنواع الأشجار من فصيلة الشرو، ذو منظرٍ رائع، ورائحة زكية، وثمرٍ فى طعمه مرارة بعد تذوق الحلاوة، ويُستخدم ثمره فى الطب كعلاج لكثيرٍ من الأمراض ويُستخرج من ورقه زيت ذو منافع متعددة.

(٢) شجر الصفصاف: من الأشجار المدهشة وشديدة الجمال، تتميز بأوراقها الجذابة، وأغصانها المتهذلة، وخضرتها الكثيفة، وتلون ألوان أوراقها تبعًا للموسم، بألوان متعددة، ولها أكثر من خمسمائة نوع.

(٣) الجازولين: كلمة تُطلق على كل مشتقات البترول وهي كلمة انكليزية "GASOLINE" ثم أصبحت تُستخدم بالعربية بعد أن أدخلت عليها.

ازدادت وحشته ومخاوفه مع حلول الظلام، وازدادت أكثر عندما رأى أوراق الأشجار المتدلّية من الأغصان كالخفافيش، وشعر ببرودةٍ شديدةٍ، وإذا به يسمع صوتًا خافتًا فيوجه ضوء المصباح الضعيف صوب مصدر الصوت، وينظر إليه بخوف وقلق شديدين، وكان يحاول أن يخفف الأمر على نفسه قائلاً: "لا لا، لا ينبغي أن أخاف!" لبضع دقائق فقط.

كان رئيسُ فرقةِ الكشف قد أرسله برفقة أحد أصدقائه للوصول إلى طريق المعسكر، ولكنه قد أرسل كل واحد منهما في طريقٍ مختلفةٍ عن الآخر؛ أملًا في أن يصل كل واحد إلى المعسكر بمفرده، ولكنه لم يستطع الوصول إلى موقع المعسكر بعد مرور ساعاتٍ، بالرغم من أنه كان من المفترض أن يصل إليه في غضون ساعةٍ واحدةٍ، وعندما أدرك صاحبنا أنه لن يعثر على مكان المعسكر وأنه قد تاه في الغابة، خارت قواه من التعب، فاستلقى إلى جوار إحدى الأشجار، فلم تغد قدماه قادرَتين على مواصلة السير.

وبينما هو يُمدّد رجليه ويجلس على الأرض تذكر الحوار الذي دار في الصباح: "أرأيت كيف عاملني قائدُ الفرقة بوقاحة

وساوى بيني وبين عليّ، على حدّ قوله: إن صداقتنا ستظلّ قائمة سواء داخل المعسكر أم خارجه، وسيحمي بعضنا بعضاً من المكاره....!

أفأفقه غواء الذئاب القادم من أعماق الغابة في جو من الأفكار التي غاص فيها، وازداد خوفه مع حلول الظلام، وعندما أيقن أنه لن يستطيع العودة، جمّع بعض أغصان الأشجار جنباً إلى جنب وأشعل فيها النار، ثم أخرج غطاءً ووسادة من حقيبة ظهره، وجلس بجوار النار التي أوقدها، وبدأ ذهنه يرسم أشكال الذئاب بواسطة الظلال التي أحدثتها النار؛ وهو ما زاده خوفاً إلى خوفه، كان يفكر في كلام قائد فرقة الكشافة بينما كان يراقب اشتعال النار، وكأنّ هذه الأفكار والخيالات قد خرجت من وسط النار، وسرعان ما اختفت فجأة:

- اسمع يا عثمان، لقد شكّلت ثنائياً جيّداً جداً مع عليّ، فينبغي على كلّ منكما حماية الآخر داخل هذه المجموعة الصغيرة.

- يا إلهي! ماذا سنستفيد من ذلك؟!

- أنت مخطئ! بإمكانكما تبادل الأفكار فيما بينكما وإصلاح أخطائكما سوياً.

وكان صوتُ النارِ يشاركُ من حينٍ لآخرٍ في هذا الحوار،
وقد حان الدورُ على عثمان الآن:

- نعم!

كانا يتكلمان مع قائدِ الفرقةِ وكأنهما يساوِمانِه على شيء.

- لا تحتقرِ الأمرَ بهذا الشكل.

- ماذا تقصد؟ هل سيخبرني عليّ بخطئي؟!

إذا رأى إنسانٌ عقرباً على ظهر صديقه، وقال له ذلك هل يكون قد أخطأ؟ كذلك الأخطاءُ التي يرتكبها الناسُ كالعقارب، فالعقارب تتسلَّلُ إلى جسدِ الإنسانِ في سرِّيَّة تامَّةٍ دون أن يشعرَ بها أحد، وأعتقدُ أن تحذيرنا الصديقَ بشأنِ أخطائه ليس سوى إحسانٍ إليه.

ومرَّةً أخرى، أخرجَ غُواءَ الذئابِ عثمانَ من جوِّ الأفكارِ التي سيطرتُ على عقلِه في ظلمة الليلِ الحالكِ، وشعرَ أن جميع عضلاته قد أُصيبَت بالتشنُّجِ دُفعةً واحدةً في هذا الظلام، وسقطت بعض العَبْرَاتِ مِنْ عَيْنَيْهِ، وسيطرت عليه حالةٌ من الندم، وقال في نفسه: ”يا ليتني استمعتُ إلى كلامِ قائدِ الفرقة، ولم أنفصلُ عن عليّ“.

ثم غطى جسده حتى رأسه بغطائه كالطفل الصغير في محاولة منه للتخلص من الخوف المسيطر عليه، ثم شَعَرَ بصوت طَقْطَقَةٍ، وكان الصوت يقترب منه تدريجيًا، كان يريد أن يستكشف المكان المحيط به، لكنه لم يكن يرى ما وراء الأحرار، فكيف لو رأى؟! إنه كان خائفًا إلى الحد الذي كان لا يستطيع معه أن يُحرِّك ساقيه المرتعدتين، بالإضافة إلى أنه كان لا يستطيع النظر بعينه إلى المكان الذي يُصدر الصوت؛ أراد أن يصيح، لكنَّ الخوف قد حال دون ذلك، وأحسَّ كأنه في كابوس مروّع، ماذا يمكنه أن يفعل؛ إذ إنه لم يدُرْ بخَلْدِهِ احتمال مواجهة مشكلة من هذا النوع، وأيقنَ حينها أنه لا طائل من الندم على ما حدث، لكنه الآن يتمنى لو أنَّ أصدقاءه في فرقة الكشافة الذين هرب من مرافقتهم، أن يكونوا إلى جواره.

اقترب الصوت بضعة أمتارٍ من المكان الذي يتواجد به عثمان ”ما الذي يحدث في الخارج؟!“، خشي وقتها من مُجرَّد التنفُّس، وحينما أدرك أن غطاءه الذي يتمسك به بشدةٍ يتمَّ سحبُه من على رأسه، فصاح قائلاً:

- النجدة.. النجدة.. الذئاب!

وبدا يُحرِّك قدميه بكلِّ ما أُوتِيَ من قوَّةٍ، وبينما هو يصرخ ويصيح، أيقن أن الذئب لم تقترب منه، ففتح عينيه اللتين أغلقهما بإحكام من شدة الخوف.

وواصل الصياح والصراخ، لكنّه لم يكن يدرك لماذا يصرخ إلى الآن! لا سيّما أنه لم يكن هناك ذئبٌ أو وحوشٌ مفترسةٌ حوله كما كان يظنّ، فلم يكن أمامه سوى قائد فرقة الكشافة، أمسك القائد عثمان الذي بدوره أخذ ينظر حوله بنظراتٍ شاحبةٍ لفترةٍ طويلةٍ، وقال له:

- عثمان! عثمان! اهدأ؛ ليس ثمة ذئبٌ، ألا تعرفني؟ إنه أنا قائد فرقة الكشافة.

ثم رجع إلى الورا، وصاح قائلاً:

- تعالوا، لقد وجدتُ صديقكم.

وبعد قليلٍ حضر عليٌّ وبقيةُ الأصدقاء، وأشار قائد الفرقة إلى عليٍّ أن انظر إلى صديقك عثمان، وقال:

- لحسن حظك يا عثمان أن صديقك عليًّا في الفرقة؛ فعلى الرغم من ابتعاده كثيرًا عن المعسكر، إلا أنه قد آثر أن يأتي إلينا ليُخبرنا أنك فارقتّه، وإذا لم يكن فعلٌ ذلك فلربّما لم نتمكن من العثور عليك.

وأنهى القائد كلامه عند هذا الحدّ؛ كي لا يزيد من إحراج عثمان أمام أصدقائه، وتابع حديثه بقوله:

- هيا بنا لنعود إلى المعسكر حتى لا يقلق علينا سائر أصدقائنا.
أدرك عثمان حينئذٍ خطأه الذي ارتكبه، في طريق عودتهم إلى المعسكر، وكان يضحك من حاله طوال الطريق؛ بسبب الأوهام التي جالت بخاطره: اعتقاده أن صوت الطقطقة ذئبٌ قادمةٌ لافتراسه، وركله قائده الذي همّ بسحب الغطاء من فوق رأسه لظنه أنه ذئب، وصياحه للاستغاثة حتى بُحَّ صوته...



حكمة الذبابة

أمسك السيد صابر بفُرْشاة الرسم الجميلة بيده اليمنى،
وبعلبة ألوان الرسم بيده اليسرى، ثم تقدم بفرشاته إلى لوحته
الفنية التي أمامه، ليُكَمِّلَ الرسمَ ويستخرج اللوحةَ بأبهى حلّة،
فَلَمَسَ لمسةً واحدةً بالفرشاة على اللوحة، ثم تراجع إلى الخلف
خطوة ليُمعِنَ النظرَ إلى اللوحة ثم أغمض عينيه قليلاً وكأنه خارجٌ
من غرفةٍ مظلمةٍ إلى مكانٍ مضيءٍ، وجال بعينه مرةً أخرى في
اللوحة، ثم مدَّ مِقْبُضَ فرشتهِ إلى الأمام ليختبرَ مَقَاسَ اللوحة.

تناول اللونَ الأبيضَ، ورغم كونه باهظَ الثمنِ، إلا أنه استجمع
قواه وأضاف مزيداً منه على الطائر المرسوم في لوحته، فقد بذلَ
جهداً كبيراً لإتمام رسم هذه اللوحة، وسهر الليالي من أجل
إنجازها، وكان الوقت قد تأخَّرَ هذه الليلة أيضاً، شَعَرَ بالإرهاق من
جزء الوقوف على قدميه اللَّتَيْنِ بدأتَا ترتعدان من التعب.

توجّه إلى النافذة كي يطرّد النوم من عينيه، وشعر بارتياح عندما استنشّق الهواء النظيف القادم من الخارج، وما أن فتح زجاج النافذة، حتى رفعت القطّة التي كانت تقف في الشارع رأسها ونظرت إليه، لم يلحظ القطّة في بادئ الأمر، لكن سرعان ما جذب انتباهه النور الساطع من عينيها في ظلمة الليل الحالك، فتنهّد قائلاً: "يا له من لونٍ مميّزٍ! فلو حاولتُ أن أضيفَ لوناً كهذا على لوحتي فلن أفلح".

شعر بالملل لعدم وجودٍ ونيسٍ يتحدثُ إليه، فلما رأى القطّة في الشارع، بدا وكأنّه سيحدّثها قائلاً: "يا أستاذ، كيف حالك؟" ثم دخل متممًا "ما لك يا صابر، ما الذي يحدث لك؟!".

عاد إلى الغرفة، وتناول علبة الألوان والفرشاة واتّجه إلى لوحته مجدّدًا، وفي تلك الأثناء دخلت من النافذة المفتوحة ذبابةٌ سوداء، شعر صابر بالتوتر بسبب صوت الذبابة ووقوفها على لوحته، واحمرّت عيناه غضبًا بعدما حطّت هذه الذبابة السوداء الكبيرة بعد ثوانٍ معدودة على أكثر جزءٍ بياضًا في لوحته، فلم يستطع ابتلاع ريقه من الدهشة والغضب، وتسمّر في مكانه لا يتحرّك وكأنّ على رأسه الطير.

واعتقد أن الذبابة لو بقيت قليلاً على لوحته ربما تلتصقُ بها
وتفسدُها، فصاحَ وهو يلوحُ بيده أمام اللوحة:

- ماذا تفعلين أيتها الذبابة؟!

وتذكّر صابر أن فرشاة الألوان بيده قد لامست اللوحة،
فحزن على ما فعله، واستشاط غضباً، وتجمّدت الفرشاة في يده؛
حيث إن حركته العفوية قد تسبّبت في رسم خطٍّ لا داعي له في
وسط اللوحة، وبعد لحظاتٍ ضربَ بقدميه على الأرض ثائراً
كأنما أنشطَ من عقال^(٤)، وقال للذبابة:

- أيتها الذبابة! هل أعجبك ما صنعتِ بلوحتي؟ أليس لديكِ

احترامٌ للفن؟!

ثم تناول صابرُ الفرشاة وحاولَ طمسَ أثر هذه البقعة قبل أن
تَجفَّ ألوانُ اللوحة، وما أن انتهى من هذه المهمة، حتى سمع
طنينَ الذبابة من جديد، فوضع الفرشاة بجوار حاملة اللوحة،
ثم أخذ بيده صحيفةً مطويةً كانت في أحد أركان الغرفة، وانطلق
يطاردُ الذبابة، وعندما رصدت عيناه الذبابة وهي تطيرُ في الهواء،
توجّه نحوها ككلبٍ الصيد الذي يلهث وراء فريسته دون تعقّل،
وخطا بقدميه خطوتين إلى الأمام وكأنه مُنَوَّم تنويعاً مغنطيسيّاً،

(٤) أي خلّ من وثاق.

فاصطدمت قدماه بطاولةٍ كانت أمامه، فسقطَ على الأرض، فصارت القضيةُ بالنسبةِ له مسألةِ كرامةٍ وشرفٍ، فبدأ يتعقَّبُ الذبابةَ بحرصٍ شديدٍ.

ازداد غضبهُ وتوترهُ كثيرًا كلما تذكَّرَ الاهتمام الذي أولاهُ للوحته وما اقترفتهُ الذبابةُ في حقِّه وعدمِ اكتراثها بالجهدِ الذي بذله من أجلِ إنجازِ تلك اللوحة، وشعرَ وكأنه يُمسكُ ببندقيةِ صيدٍ وليست صحيفةً مطويةً، وبدأ يجولُ في الغرفة بتوترٍ مثل الصياد الذي خرج في جولةِ صيدٍ في غير موسم الصيد، وبعد مُضيِّ بعض الوقت أدركَ أن الذبابةَ مستترَّةً في الجزء الداخلي من الستارة، ولمعت عيناه، ووثبَ بكلِّ ما أُوتي من قوَّة من أجلِ التخلُّص من تلك الذبابة التي كادت أن تُفسدَ عليه لوحته، وبينما يَهْتُم بضربها، إذا به يتسمَّرُ مكانه؛ فقد أَحَسَّ بالألمِ شديدٍ في خاصرته؛ بسببِ وقوفه لساعاتٍ طويلةٍ، كما أن وثباته لعبثَ دورًا كبيرًا في إصابته بهذا الألم، والآن بدأ يشعرُ بوخزٍ في خاصرته، فاستشاط غضبًا لما أصابه، وقال:

- آه.. خاصرتي! ماذا عساي أن أفعلَ بكِ أَيُّهَا الذبابة؟!

وفي الوقت الذي وقف يعاني من آلامه، استغلَّت الذبابةُ الفرصةَ وحطَّت بجناحيها بجانب المصباح، وعندما شاهد الذبابة وقد وقفت إلى جانب المصباح، استبدل المكنسة بالصحيفة

التي كان يمسكها، ثم اقترب ناحية المصباح وقد عقد العزم على عدم الوثب مرة أخرى، أخذ الكرسي ونقله إلى أسفل المصباح، ولم يكن يرغب في إصدار أي صوت حتى لا تهرب الذبابة، فهو الآن يضحك من فرحة اقترابه من هدفه، كان كل شيء جاهزاً، تراجع إلى الخلف ورفع المكنسة في الهواء، يا إلهي ما هذا! لقد هربت الذبابة ثانية، واصطدمت المكنسة بعد رفعها إلى الأعلى بالمصباح، فانكسر.

ولما أدرك ما حدث وقف كالتمثال فوق الكرسي في هذا الظلام، وقف وتفكر قليلاً، فكل ما عاشه منذ قليل يستدعي الآن الضحك، لكن لا يزال لديه شغف لمعرفة مكان الذبابة، وبعد مدة لاحظ أن ضوءاً يأتي من خلف ستارة النافذة، فقد كان الوقت قد تأخر وطلع الصباح، ففتح الستارة حتى يدخل مزيد من الضوء إلى الغرفة، فأضاءت الغرفة بالكامل.

وفي تلك الأثناء مرَّ أمام عينيه مشهد فتحه النافذة من أجل استنشاق الهواء، ومن ثم دخول الذبابة غرفته، وبعدها وقوع ما حدث معه، وأيقن حينها أنه أعطى هذا الأمر اهتماماً أكبر من حجمه، وفي تلك الأثناء طارت الذبابة، وخطت على إطار النافذة.

فما أحدثته الذبابة في لوحته هو ما دفعه إلى أن يستشيط غضبًا، لكنه الآن هداً وسكنت أعصابه، كما أن الهواء النقي الذي استنشقه حال وقوفه أمام النافذة ساعد في إراحته كثيرًا، وكانت الذبابة تنظرُ إلى عينيه ولسانُ حالِها يقول: ”في الوقت الذي ترغب فيه أن أحترم فنَّك، أليس غريبًا أن تُفكّر في قتلي؟! أليس من الخطأ أن تُقدّم على محاولة قتلي بدعوى أنني لم أحترم فنَّك؟! أليس لديك احترامٌ للمُبدع الذي خلّقني؟!“.

ألقي صابرُ المكسّة التي كانت في يده على الأرض، وقد فرحَ بأنه استطاعَ الربطَ بين احترام الفنّ وخطأ قتلِ نفسٍ لا ذنبَ لها، في الواقع إن التعدي على الذبابة لم يكن يعني التعدي على مجرد ذبابة، بل إنه يعني التعدي على مبدع الذبابة، وهذا يُعدّ عدمَ احترامٍ لخالق الذبابة، فالآن عاد صابرٌ إلى رشده، وزالت عنه الرغبة في القتل.

ووقف يشاهد الذبابة وهي تخرجُ من النافذة وهو يقول: ”في الوقت الذي تتمتع به ذبابة بهذا القدر من القيمة، أيعقلُ سفكُ دم إنسانٍ أرقي المخلوقات فنًا وإبداعًا؟!“, وتذكّر كلمات علّمته إياها جدّته عندما كان صغيرًا؛ إذ كانت تقول: ”إن قتل نفسٍ واحدة يساوي قتل الناس جميعًا“، فليس من الإنصاف

إزهاقُ نفيسٍ بريئة -مهما صغُرَت- من أجل الإنسان والإنسانية
 جمعاء، وأدرك أن ما كان سيرتكبه كان خطأً كبيراً، وسيطرت
 حالةٌ من الاندهاش على صابر بينما كانت الذبابة تطير لتخرج
 من الغرفة، وقد أشرقت الشمس، وأضاءت بنورها الأفق.



الصلاة منجاة

بددت أصواتُ بائعي الفطائر الصمتَ المسيطر على محطة «العمرانية» للحافلات، وفي هذه الأثناء دخل عدنان وكمال الحكاية بحقائب السفر الخاصة بهما، لا تسألوني ما الداعي لذكرهما الآن؛ لأنهما بطلا هذه الحكاية، سيسافران سوياً إلى إسطنبول.

ترك عدنان الحقيقة التي كان يمسكها في يده، ونظر إلى تذكيرة السفر، ثم التفت إلى صديقه كمال، وقال له:

- نعم، الحافلة التي في الأمام هي التي سنركبها، هيا يا كمال، وصل الصديقان إلى جانب الحافلة، ثم قدما تذكيريهما إلى مساعد السائق، ومن ثمّ وضعاً حقيبتيهما في المكان المخصّص لها في الحافلة، ومال عدنان إلى مساعد السائق، ونبّه قائلاً:

- انتبه لو سمحت! توجد أشياء مهمة في داخل هذه الحقيبة.

وبالرغم من ذلك، لم يُلقِ مساعدُ السائقِ بالاً لتحذيراتِ عدنان، وألقى حقيبتَهُ في خزانةِ الحافلةِ وكأنها كيسٌ من القطن. شَعَرَ عدنان بغضبٍ شديدٍ، وقال وهو يستشيط غضباً: ”حسبي الله ونعم الوكيل!“، وكان يقصد بهذا: ”قد فعلتَ خلافَ ما قلتُ لك يا أخي؟!... أتفعل بي هذا في بداية الرحلة؟!...“

تحركت الحافلة متأخرةً عن ميعادها المحدد بخمسة عشر دقيقة؛ الأمرُ الذي أغضبَ عدنانَ أكثر، ودَفَعَهُ للتفوّه بكلمات يعبر بها عما بداخله مِنْ حَنَقٍ، غير أنه سيطرَ على غضبه في اللحظات الأخيرة، وحاولَ عدمَ إبدائه؛ لأنه مُعتادٌ على مثل هذه الحالات، بدأت الرحلةُ، وأخذ الصديقان يتحدّثان طوال الطريق عن ذكريات الطفولة.

وبعد فترةٍ من الوقت وصلت الحافلةُ إلى مقرِّ الاستراحة، كان الصديقان قد عانيا خلال الرحلةِ من آلامٍ في الرُّكَب؛ بسبب ضيقِ المسافةِ بين المقاعدِ، وما أن نزلا من الحافلة حتى وَقَفَا على أقدامِهِمَا ورُكْبَهُمَا تَزْتَعِدُ كالمُهر حديث الولادة يحاول الوقوف لأول مرّة.

بادر كُلٌّ مِنْ عدنانَ وكمالٍ إلى البحث عن مسجدٍ؛ لأداء صلاة الظهر، فصلّيا مباشرةً لأنهما كانا مُتَوَضِّئِينَ، ولكن عند عودتهما

إلى الحافلة فُوجئًا بعدم وجودها، ظنّا في أنهما قد بحثا عنها في المكان الخاطيء، فأخذا يبحثان في مقرّ الاستراحة ذهابًا وإيابًا. وعندما أدركا أن الحافلة قد غادرت المكان، نظرًا إلى ساعتيهما للتأكد من أنهما لم يتأخرا عن الوقت المحدد، فعلمّا أنه كان لديهما نحو عشر دقائق حتى نهاية وقت الاستراحة. استغربا من تصرّف مساعد السائق؛ حيث إنه قد أكّد لهما عدم مغادرة الحافلة بدونهما حينما أخبراه بقولهما: ”سُئِلَني خلال عشر دقائق، ثم نعود فورًا إلى الحافلة“، فما كان منه إلا أن غادر المكان قبل انتهاء وقت الاستراحة.

كان عدنان يملك نفسه من الغضب بصعوبة بالغة، ووقف على قارعة الطريق تعتليه حالة من الاندهاش.

في الوقت الذي كان عدنان يقف عاجزًا عن التصرّف لا حول له ولا قوة، نجد أن صديقه كمالًا قد أخذ يتمالك نفسه ويستجمع قواه، وبدأ يفكر في إيجاد حلولٍ عمليةٍ من أجل اللحاق بالركب؛ كي يصل إلى عمله في اليوم التالي، وبينما يتسّم كمال بحالة من الهدوء والثبات الانفعالي، نجد عدنان يُعرب عن غضبه الشديد بالنظر يَمَنَةً وَيَسْرَةً؛ للبحث عن مسؤولٍ بشركة السفر لسؤاله عن أسباب ما حدث، ثم يلتفت عدنان إلى كمال ويقول له:

- يا له من سوء حظٍ يا أخي! هل يمكنُ لإنسانٍ أن تنكسرَ أسنانه وهو يتناولُ المَهْلِيَّةَ^(٥)!

ثم نظر إلى كمال فوجده ينظر إليه مُبتسمًا، فلم يحتمل عدنان ذلك فسأله قائلاً:

- خيرًا! لِمَ أنت هادئٌ إلى هذا الحدِّ؟! أم أنني قد فاتتني الحافلةُ وحدي؟!

نظر كمال إلى صديق طفولته، وقال وهو مبتسمٌ مبتهج:

- هَوْنٌ عليك يا صديقي، إن الغضبَ لن يحلَّ المشكلة؟
أطال الصديقان الكلامَ إلى أن وصلت حافلةٌ أخرى مقرَّ الاستراحة، فركباها وشرحا ما حدث لهما إلى السائق.

لم تكف تلك المحادثات كي يشعر عدنان بتمام الراحة، بل إن شعورَ صديقه كمال بالراحة والطمأنينة زاده سُخطًا على ما حدث له، لكنه يشعرُ ببعض الراحة على أمل أن يلحقا بحافلتهم في مقرَّ الاستراحة التالي الذي وصلًا إليه في نهاية الرحلة، ولرغبته في عدم تكرار ما حدث له ولصديقه، التفت عدنان وهو ينزل من الحافلة هذه المرة، وقال لمساعد السائق:

(٥) المهلية: نوع من أنواع الحلوى الطرية جدًا مصنوعة من الحليب والنشا والسكر.

- بالله عليك يا صديقي لا تنسونا أنتم أيضًا في هذا المكان، وفي هذه الأثناء رأى عدنان الحافلة التي غادرت وتركتهُم في المحطة السابقة، فترك الكلام مع مساعد السائق، وسارع بالتوجُّه إلى مكان الحافلة.

لم يفهم كمال سبب إصرار عدنان في خطواته، فنظر بمزيد من التركيز ليشاهد هو الآخر الحافلة التي فاتتهُم ويشرع بالجري وراء صديقه، وصل عدنان إلى الحافلة، وما أن همَّ بالصياح واللوم، إذ بمساعد السائق يبادره بقوله:

- أهلاً يا صديقي العزيز!

...

فجالت بذهن عدنان أفكارٌ ناقمةٌ على مساعد السائق، مفادها: ”كيف لهذا الرجل أن يتصرَّف وكأنَّ شيئاً لم يحدث؟! في محاولةٍ منه لجعلنا ننسى ما حدث لنا؟!“، وبينما تجولُ في ذهنه هذه الأفكار، تابع مساعد السائق كلامه بالابتهاج ذاته قائلاً:

- إن الله يُحبُّكَ أنتَ وصديقَكَ هذا يا صاحبي.

لم يفهم عدنانُ ما يقصِّده مساعد السائق، الذي أشار إلى زجاج الحافلة، وتابع بقوله:

- ألا ترى ماذا حدثَ لزجاج الحافلة؟

نظر عدنان وكمال إلى بعضهما البعض، وطرحا سؤالاً في اللحظة ذاتها قالا فيه:

- ما علاقة ذلك بأنكم نسيتمونا وتركتمونا في محطة الاستراحة؟!

- ليس الأمر كذلك يا صديقي! بعدما ذهبتما لأداء الصلاة جاء رجلٌ ثَمِلٌ، ودخل في مشاجرةٍ مع سائق الحافلة.

- ماذا تقصد؟

- ثم بعد ذلك...

وصمت مساعد السائق لحظةً، وبَلَغَ رِيقَهُ، بينما يواصل عدنان وكمال التحديق في وجهه؛ لعدم فهمهما ما حدث بالضبط، وشَعَرَ مساعد السائق بالسعادة لمتابعتهما إيَّاه باهتمام بالغٍ، ثم استطرد في كلامه بَسَرْدٍ ما وقع لهم بقوله:

- كانت لدى ذلك الثَّمِلِ رغبة في العِراكِ، وهو ما دفعنا للإسراع بالانطلاق من أجلِ التخلص منه، لكن ذلك لم يُثْنِهِ عن تَعَقُّبِنَا بسيارته.

نظر عدنان إلى كمال وقال للرجل:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- استطاع اجتياز حافلتنا بعد مُدَّةٍ، ومن ثَمَّ اعترض طريقنا،
وكاد أن يتسبب في وقوع حادثٍ مروعٍ.
...

- ثم أخرج مسدّسه، وأطلق طلقتين صوب سائق حافلتنا.
تعجّب الصديقان مما يسمعا به، وسألا مساعد السائق بشغفٍ:
- حقًا؟ حمدًا لله على سلامتكم... هل سقط قتيلٌ أو جريحٌ
من جرّاء هذا الهجوم؟
- ما تلا ذلك يتعلق بكما.

فرد عدنان مسرعًا:
- كيف ذلك؟!
- لأن الطلقتين اللتين أطلقتهما الرجل الثمل لم تُصِبْ
السائق، وإنما أصابتا المقعدين اللذين كنتما تجلسان عليهما،
وهذا يعني أنكما إن كنتما في الحافلة وقت الهجوم فلربّما
لم تتمكنا من النجاة.
...

سيطرت حالة من الدهشة والذهول على الصديقين لما
سمعا، فالرصا صتان ثَقَبَتَا المقعدين اللذين كانا يجلسان عليهما،
ونفذت إلى الجهة الخلفية، أفاق عدنان من هذه الصدمة بعد

لحظاتٍ، والتفتَ إلى صديقه كمال الذي جادلَه في المحطة السابقة وذكرَه بالآية القرآنية: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢/٢١٦].

ثم قال له:

- لقد فهمتُ خطئي جيّدًا يا أخي.

سمع الصديقان إعلانًا صوتيًا داخلَ مقرِّ الاستراحة، يقول: ”إن مؤسستنا تُكرم ضيوفها بالشاي مجانًا“، فتقدما نحو المقهى وهما يشبكان ذراعيهما ببعضهما البعض، وتناولوا ضيافة الشاي بسعادةٍ بعد تلقيهم درسًا نافعًا من دروس الحياة.



للكون مُدَبِّر

كان الجو حارًّا، وقد أوصى خبراء الأرصاد الجويّة بعدم الخروج إلى الشارع إلا في حالات الضرورة القصوى، وكان الناس يشعرون بدرجة الحرارة بمعدّل أعلى بسبب الازدحام الشديد، وكان هناك أناس وسيارات وبواخِرُ وطيورُ النورس التي تحتمي بالظلّ... كان فؤادٌ كلما نظر إلى مكانٍ وجد الناس يختبئون فيه من حرارة الصيف، وشعر بأن شيئًا التصقَ بقدمه بينما كان يعبر الشارع إلى الجهة المقابلة، فنظر إلى أسفلِ حذاءه فوجدَ الزفتَ الأسودَ قد التصقَ به، فقد تسببت الحرارة المرتفعة في انصهار الإسفلت الذي التصقَ بحذاءه.

أحكم فؤادُ قبضته على الحاسوب الذي كان يحمله بيده؛ خشية أن يسقطَ من بين أصابعه التي سال منها العرق، وكان قد عانى كثيرًا لإيجاد مكانٍ من أجل إيقاف سيارته، وحرارة الشمس تزيد الأمور صعوبةً.

دخل شركة صديقه كنعان للحواسيب بعد رحلة شاقّة، وشَعَرَ
بارتياح عندما وضع حاسوبَه على المنضدة، عَرَفَ الشاب الذي
كان يجلس على مقعد الاستقبال فؤادًا، وقال له:

- مرحبًا بك يا صديقي الطبيب.

- أهلاً بك يا صاحبي.

أشار كنعان إلى الحاسوب الذي وضعه الدكتور فؤاد على
المنضدة، وسأله بدعابة:

- خيرًا؟ ممّا يعاني مريضنا؟ هل قلبه ينبض؟ وما هو قياس
ضغطه؟

ابتسم فؤاد لمداعبة صديقه، ثم التفت كنعان إلى مساعده
قائلًا:

- اطلب مشروبًا باردًا للدكتور فؤاد.

ثم فكّ الحاسوب بالمفكّ سريعًا، وقال بينما هو يَفُكُّ
الحاسوب: ”ما المشكلة يا صديقي؟“، ثم نظر إلى داخل
الحاسوب، فقال الدكتور فؤاد:

- انقطع التيار الكهربائي ثم عاد، ثم حاولت تشغيل
الحاسوب فلم يعمل.

نادى كنعان على مساعده قائلًا:

- أَعْطِنِي قَابَسَ الكَهْرَبَاءِ يَا بُنَيَّ.

نهض الدكتور فؤاد من مكانه، وقال:

- هل ستستغرق صيانة الحاسوب وقتًا طويلاً؟ إن كان الأمر

كذلك فإنه يمكنني أن أذهب الآن، ثم آتي لاحقاً لاستلامه، فإن

صيانة الحاسوب تتطلب عملاً طويلاً، ومكوناته معقدة للغاية،

ويمكن أن تُكْتَشَفَ به بعض الأعطال.

ردَّ كنعانُ دون أن يرفع رأسه:

- عندما تنظرُ للمسألة من الخارج تجدُها صعبةً معقدةً،

أليس كذلك؟ يوجد بداخل الحاسوب مجموعةً من الأسلاك

السَّميكة وأخرى قد تكون أرفعَ من بعض الشُّعيرات، ويمرُّ من

خلال تلك الأسلاك المعلومات المقروءة والمُشَاهَدُ المصوَّرةُ

والصوتيات، وكلِّما أفكَّرُ في هذه الأمور تزداد حيرتي.

مسح كنعان العرق من على جبينه بعد أن صمت قليلاً،

ثم تابع:

- يا سيدي الطبيب، شاهدت فيلماً وثائقياً يحكي أن الكبد

يقوم بنحو خمسة آلاف وظيفة، فلما سمعتُ هذه المعلومةُ

اندهشتُ كثيراً وقد كنتُ أتعجَّبُ من نظامِ عملِ الحاسوب

المُعقَّد والمُبْهِر، ليست وظيفةً واحدةً أو خمس، بل خمسة

آلاف وظيفه! ما رأيك؟ ألم يدعِ المولى ﷻ في خلق مخلوقاته في أحسن تقويم؟

وبدأ كنعان وهو يشرح ما يقوله يحركُ المفك الذي يُمسكه بيده كالعصا التي يمسكها الموسيقار وهو يقود فرقته الموسيقية، وكان بين الحين والآخر يُدخل رأسه داخل الحاسوب لمتابعة عملية الصيانة، أصبح وكأنه لا يشعر بالحرّ أو يرى الحاسوب الذي أمامه، ثم قال بعد مدّة:

- أعلّم أنّ الحديث في مجال عملك يعتبر عيباً، لكنني أتعجّب كثيراً عندما علمت هذه المعلومة، فما رأيك؟

ثم توجّه بالنظر إلى فؤاد، فشاهده وهو ينهض وقد ترك مشروبه البارد فوق المنضدة، وبدأ ينظر بنظرات متأمله، لم يفهم كنعان ما الذي حدث، فبادره بالسؤال:

- ما الذي حدث لك يا سيدي الطبيب؟ أتمنى ألا أكون قد أزعجتك.

- لو سمحت لا تفهمني خطأً، فإن ذهني مُنشغلٌ، سأذهب بعد ساعة لفحص مريض أعالجه، فذلك الذي كان يشغل تفكيري.

- عافاه الله، من أيّ شيء يشتكي ذلك المريض؟

- فُمنّا بعمليةٍ خياطةٍ لساقه التي بُترت في حادث عمل، وهو الآن يخضعُ للمتابعةِ الطبيةِ، وينبغي لي أن أذهبَ لمتابعة حالته.
ثم استأذن الدكتور فؤاد للمغادرة، فودَّعه كنعان، وقال له:
- لا تقلقْ بشأن حاسوبك، تستطيعُ المجيء في المساء لاستلامه.

ابتعد الدكتور فؤاد عن الشركة وكأنه يهربُ من حرِّ الصيف مع محاولته الهروب من الأمور التي تشغل ذهنه؛ حيث إنَّ هذا النوع من الأفكار كان يُرهقه كثيرًا، وكان ممَّن يؤمَّن بأن كلَّ شيءٍ في هذا العالم نشأ صدفةً دون وجودِ إله أو خالقٍ! ركب سيارته، وسار بها إلى المستشفى، ودخل غرفة المريض برفقة الطبيب الذي أجرى له العملية، فوجداه يقوم ببعض التمارين الرياضية، فعندما رآهما المريض، قال والفرحةُ تعتلي وجهه:
- سيدي الطبيب، أشعر قليلاً بساقي.

بادر الطبيب الذي سمع كلام مريضه إلى فحص ساقه ببعض الآلات الطبيَّة التي كانت في يده، ووجد أن المريض كان مُحققاً فيما يقول؛ إذ إن بعض الأماكن في ساقه بدأت تعمل بطريقة طبيعية، كان الدكتور فؤاد منشغلاً بما قاله كنعان من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى بكلام زميله الطبيب الذي كان يقول:

- حاولنا ربط الساق المقطوعة بالجسد كما كانت، ولكن وجدنا صعوبةً بالغةً في إيصال الأعصاب الأساسية، وكان من المثير للغاية أن تستطيع الأعصاب الالتئام والعودة إلى طبيعتها الأولى، هذه معجزة من عند الله، ألم يخلق الله الإنسان في أحسن تقويم؟

سمع فؤاد هذه العبارة للمرة الثانية في اليوم نفسه، ”كم هو مبدع! أليس كذلك؟“ كان يحاول الهروب من التفكير في تلك الأفكار، لكنّها سرعان ما سيطرت على ذهنه مجدّداً، وقال في نفسه: ”كيف يمكن أن يحدث ذلك والساق يمرّ عبرها آلاف النهايات العصبية؟!“.

كان فؤاد قد عالج العديد من الحالات المرضية المشابهة لهذا المريض، ولكنّ ذلك اليوم كان مختلفاً تماماً؛ فقد شَعَرَ في ذلك اليوم وكأنّ أشياء تتحرّك بداخله وفي عقله، وعلى الرغم من ذلك كان من الصعب عليه التصديق بأن هناك إلهاً خلق كلّ هذه الأشياء، ولقد أجابه المريض على الأسئلة التي أرهقت عقله؛ إذ قال:

- إن الله ﷻ قادرٌ على كلّ شيء!

تعاظمت هذه الكلمات في ذهنه وكأنها تمددت خارج عقله، وصعدت إلى عنان السماء، عاد فؤادٌ إلى رشده كأَنَّهُ استيقظ من حلمٍ رآه في منامه، واستمرت العاصفةُ التي اجتاحت عقله منذ أن خرج من المستشفى حتى وصوله إلى شركة الحواسيب، وعندما وصل إلى هناك وجد أن حاسوبه قد تَمَّت صيانتُه.

وبينما هو خارجٌ من الشركة ومعه حاسوبه، نظر إلى عيني صديقه كنعان، وكانت عيناه تملأهما الدموع؛ حيث إنه قد عثر على إجابة السؤال الذي كان يُحيره منذ سنوات.

ففي الوقت الذي أثبت الحاسوب أن له صانعاً أَتَقَنَّ صُنْعَهُ، فكيف لهذه المخلوقات أن تكون من غيرِ صانعٍ قد أَبْدَعَهَا؟ في الواقع، إن هذه المخلوقات تَتَمَتَّعُ بنظامٍ دقيقٍ يُظْهِرُ القدرةَ المُطلَقةَ لِخالِقِهَا ﷻ، وهو ما يعني أن خالقَ آلاف الخلايا العصبية هو من خلق عينَ البعوضة وهو نفسُه خالقُ الشمس.

وحينما خرج الدكتور فؤاد من شركة الحواسيب كانت الشمس قد بدأت تغيب لتترك مكانها لِلَّيْلِ يداعب الأشجار بهوائه اللطيف، في الوقت الذي تركت فيه الأسئلة التي أَرَهَقَتْ ذهنه مكانها لِلطَّمَأْنِينَةِ والراحة.



بزوغ فجر الحقيقة

لم يكن الباب والمكتبة وواجهة العرض التي تتألاً في وضوح النهار وسط المنزل ليظهروا لولا ضوء المصباح القادم من خارج المنزل، فقد كانت الغرفة مظلمة إلى الحد الذي إذا استيقظ أي شخص في منتصف الليل فمن الممكن أن يضطدم بأحد هذه الأشياء إن لم يمش بحذر.

لم ينعكس ضوء القمر المتألي في هذه الليلة على سقف الغرفة؛ لأننا في موسم الصيف، ولم يكن أمجد يحبذ الظلام مطلقاً، وكان أحياناً يضع الغطاء على رأسه ويظل تحته حتى يخلد إلى النوم.

حدث ذلك أيضاً في تلك الليلة، الجميع ناموا، سوى أمجد فإنه لم يستطع النوم رغم أنه أغلق عينيه بإحكام تام، وصار يتقلب يمنة ويسرة تحت الغطاء لمدة طويلة، ثم أخرج رأسه من تحت الغطاء بعد نفاذ الأوكسجين في داخل الغطاء.

مرت ساعةً منذ أن دخلَ إلى السرير، والنوم يجافي عينيه بالرغم من أنه كان يشعر بإرهاقٍ كبيرٍ في جسده، ثم قال في نفسه:
 - يا أماء! لقد غلبني النومُ وأنا أجلسُ أمام التلفاز، كان شعورًا رائعًا! لماذا أيقظتني؟ أيقظتني؛ لأنه لا يمكنني النوم بملابس الخروج حتى لا تصير غير مُهَنَّدَمَة، كما أنها لا تريد أن أنامَ على المقعد أمام شاشة التلفاز، والآن أحاولُ أن أنامَ بعد أن جفاني النومُ دون رجعة.

بدأ ذهنُ أمجد يشردُ مع الخيالات التي شكَّلَتْها الستارةُ المتحركةُ داخلَ الغرفة المظلمة، استمرَّ هذا المشهد لمدَّة، ثم اختفى.

وكان أمجدُ كلَّما حاولَ النومَ من أجل الهروبِ من نفسه والأسئلة التي تجولُ بعقله يُجَافِيه النومَ أكثر، ويظلُّ ساهرًا طوال الليل.

ظلَّ أمجدُ يَتَقَلَّبُ يمينًا ويسارًا وعلى ظهره وعلى بطنه؛ في محاولةٍ منه لإيجاد وَضْعِيَّة تُسَاعِدُه على النوم، ولكن دون جدوى، بقي أن يُجَرِّبَ النومَ على رأسه! ولكن هيهات....! وكأن أسرته جعلته يشربُ كلَّ القهوة الموجودة في المنزل.

كلّ من في المنزل قد ناموا؛ حتى الأسماك الموجودة في حوض السمك، والقطّة، وطائر الوقواق^(٦) المُعلّق داخل الساعة، لكن أمجد لم يَنَمْ إلى الآن، وقد تسبّبت الأسئلة التي ازدحم بها ذهنه في مُجافاة النوم عن عَيْنِهِ، فما أن حلّ الليل إلا وقد سيطرت تلك الأفكار المُقلّقة على ذهنه تَمَنّعه من النوم!

أدرك أمجد أنّ جميع أفراد أسرته قد خلدوا إلى النوم؛ بسبب الهدوء والصمت اللذين خيَّما على المنزل، وشعر بالرغبة في أن ينهض من سريره ويفتح النافذة؛ كي ينظر إلى الخارج، ولكنّه لم يستطع الخروج من سريره؛ لأنّه يخشى الظلام، ولم يكن ثَمّة صوت داخل الغرفة سوى صوت عقارب الساعة، كان الخوف يسيطر عليه مع حلول الليل دون سبب! وكان يفكر دائماً في الأسئلة التي تدور في رأسه ولكن دون جدوى؛ لأنّه ليس هناك أحد في محيطه يجيبه على تلك الأسئلة، فكلّما سأل أحد أصدقائه عن هذه الأسئلة، كان يقول له: ”يا أخي اترك

(٦) طائر الوقواق: نوع من الطيور الغريبة السلوك والصفات حيث يشتهر بكسله وأنانيته فهو لا يهتم برعاية صغاره ولكنه بمجرد أن تخرج البيضة من شريكته الأنثى يلقيانها في عش طائر آخر إلى أن يخرج الطائر الجديد منها ويتولى رعايته أبوان جديدان ويبدأ الفرخ الجديد مباشرة بإلقاء من معه في العش من الطيور الصغار إلى خارج العش فيرميهم للهلاك والموت حتى ينفرد بكل الطعام الذي يأتي به الأبوان.

التفكير في هذه الأشياء، أنت ما زلت شابًا يافعًا... أَرْجِي التفكير في هذه الأشياء إلى أن تكبر، واغتنم في شبابك ما لن تستطيع اغتنامه في كِبَرِكَ، عِشْ شبابك، وعندما تكبر وتوبُ فإن كل شيء يعود إلى طبيعته ثانية“.

كان وقتها يؤمنُ أمجدُ بصدق هذه الكلمات، لكن أفكاره ومخاوفه كانتا تُساوِرانه في الليل: ”ماذا لو انتهت حياتي في هذه السن الصغيرة ولم تَسُنَحْ لي فرصة للتوبة؟ ماذا لو انتقلت من ظلمة الليل هذه إلى ظلمة أكثر حَلَكًا؟... ماذا لو لم يَطْلُع عَلَيَّ الصبحُ ثانية؟ ماذا لو...؟ ماذا لو...؟ لا لا! عَلَيَّ أن أنام“.

وفي هذه الأثناء، تذكّر المذياع الذي وضعه إلى جوار سريره، اعتقد أن بإمكانه الهروب من هذه الأفكار بالاستماع لصوت الإذاعة، ووضع السماعات في أذنيه، وبدأ يتنقل بين المحطات الإذاعية، ولكنه أخرج السماعة من أذنيه؛ إذ إنه لم يجد شيئاً يعجبه في الإذاعة، أراد أن يشرب الحليب كما يحدث في الأفلام، ثم يحاول أن ينام ثانية، لكنه لم يجد الشجاعة لفعل ذلك لخوفه من الظلام.

بادر إلى إحداث نوع من الضوضاء، بأن يُصدر صوت الكُحَّة؛ من أجل إيقاظ أحد أفراد أسرته كما كان يفعل عندما كان

طفلاً صغيراً، فباستيقاظ أحدهم من نومه، يتمكّن من الذهاب إلى المطبخ دون قلقٍ أو خوف.

رفع رأسه من على الوسادة، واتَّخَذَ وضعيّة الجلوس على السرير، بدأ يَكُحُّ بصوتٍ عالٍ جداً، لكن لم يتبّه لذلك أيّ أحدٍ؛ مما أصابه بالإحباط، ودفعه إلى تمديد جسده مرّة ثانية على الفراش.

وفي لحظةٍ، تخيّل أنه يصيحُ بأعلى صوته بعد أن يقفز من على فراشه ليصل إلى المصباح، فقال في نفسه: ”إن هذا عمل سخيف“، ثم تراجع عن تلك الفكرة، كان يرغب في التخلص من تلك الحال القاسية، فكّر في التخلّي عن جميع الأموال التي جمعها على مدار عامٍ كاملٍ؛ مُقابل أن يسمّع صوت إنسانٍ فيستريح.

أيقنَ بعد مدّةٍ أن الوقت قد تأخّر كثيراً، لكنّه سمع من خارج المنزل صوت الأذان اللطيف الذي أحمَدَ ألسنةَ اللهبِ المشتعلة بداخله، ثم قال في نفسه: ”لا تكنُ طفلاً، انهضُ وواجهِ جميعَ الحقائق التي حاولتَ الهروبَ منها وتجاهلتَها“.

تذكّر العبارة المكتوبة على اللوحة المعلّقة على جدار الغرفة التي تقول: ”إن من يُغلق عينيه يصنعُ ليلاً في خياله“، فأدرك

أنه لن يستطيع الهروب من الحقائق، وأيقن أنه كم كان مُخطئاً؛ بسبب تجاهله رؤية الحقيقة.

فتح عينيه في ظلمة الليل الحالك، وقال في نفسه: ”لا يجب أن تمرّ ليلتي هذه في ظلّ المزيد من الألم“، ثم نهض من فراشه، وتوجّه إلى الحمام كي يتوضّأ، أخذت برودة المياه المتدفقة من الصنبور تُنظّف جسده وأفكاره التي أرقتّه حتى الصباح، ثم أدّى صلاة الفجر في خشوع تامّ، وبعدها انتقل إلى فراشه مجدّداً، أصبح قلبه أكثر طمأنينة بعد أن كاد يخرج من صدره؛ بسبب هواجسه ومخاوفه.

وبينما كانت الطيور تغرّد في الصباح لإعلان سطوع الشمس، كان أمجد يغطّ في نومه سعيداً، ليستيقظ بعد ذلك على الطمأنينة الحقيقية.



المنحة في المنحة

كانت أضواء السيارات ليلاً تتقدّم على طول الطريق كالجمم
البركانية الحمراء الكثيفة؛ فقد كانت السيارات تتحرك ببطءٍ
شديد؛ بسبب الكثافة المرورية.

اصطفّت السيارات في صفوف متوازية كالمنازل المتحركة،
وتدور بداخلها محادثات جمّة بين الركاب، وكان من بين الذين
يتحدّثون داخل سياراتهم الصديقان حسن وحسين، فهما يردّدانِ
العبارات الخاصة بهما:

- انتظر أنت هنا، سأتي حالاً.

- أحسنت فيما قلت، كنت أفكّر: أين يمكنني أن أوقف

سيارتي وسط هذا الزحام؟ سأنتظرك هنا...

لم ينتظر حسن أن يكمل حسين كلماته، فنزل من السيارة،
واختفى داخل شارع جانبي، وأمّا حسين فبدأ يشاهد قطرات
المطر التي تنضحها السماء بكميات قليلة وهو يجلس داخل
السيارة، وسرعان ما شعر بالملل بعد مدّة، وبينما يميل ليفتح

المذياع، رصدت عيناه فتى مُدْمِنًا في مقدّمة الطريق، وبَادَرَ هذا الفتى ذو الهيئَةِ الرَثَّةِ إلى تقريبِ قطعةِ القماشِ التي تملأها مادّة التَّنَرِ^(٧) إلى أنفه، ثم استنشَقها عدة مرات.

نظر حسين إلى ساعته، وقال: ”إلى أين ذهب حسن؟“، بالرغم من مرور خمس دقائق على مغادرة صديقه حسن، إلا أن هذا الوقت قد مرَّ عليه كأنّه ساعات طويلة، كان يريد ألا يُظْهَرَ خوفه من هذا الفتى المدمن، وازدادَ توتُّره عندما عمَدَ هذا الفتى إلى الاقتراب من سيارته.

أَمْعَنَ الفتى المُدْمِنُ النظرَ بعينه إلى سيارَةِ حسين وكأنَّ أحدًا لم يَتَّقَ في الشارع سواه، استنشَقَ الفتى نَفْسًا عميقًا من قطعة القماش التي كانت بحوزته، ثم توجَّه صوبَ السيارة، ترنَّحَ عِدَّةَ مرَّاتٍ وهو يسير في طريقه، لكنه نجح في النهاية من الوصول إلى السيارة، فهو الآن يقفُ أمامَ السيارة، وينظر إلى عيني حسين، وكأنه يحاول أن يقتحمهما.

أَشَارَ حسينٌ إلى الفتى مُلَوِّحًا بيديه كي يتعدَّ عن سيارته، لكنّه لم يجدِ استجابةً من الفتى، فأدَّارَ محرَّكَ السيارة،

(٧) التَّنَرُ: هو مادة بترولية تتكون من خليط من بنزين السيارات وكبروسين الطائرات وهو يُستخدم كوقود وتُستخدم في أنواع الصباغات وهو سريع الاشتعال ويتسبب بالإدمان مما ينتج عنه حالة عصبية سيئة عند من يدمن عليه، فتبدو عليه آثار السكران.

وما أن سَمِعَ الفتى صوتَ المحرك، حتى انتقل بسرعة إلى باب السيارة، فقال حسينٌ في نفسه: ”لقد وقعتُ الآن في ورطة، يا ترى لو أعطيته بعض المال، هل سيتركني دون أن يلحق بي أذى؟“، فحاول أن يسأل الفتى ماذا يريد، لكنَّ الفتى لم يكن يتمتّع بحالة عقلية تسمح له بفهم ماذا يريد حسينٌ أن يقول له؛ بسبب مادة التَّنَر التي أذَمَنَ على استنشاقها.

وما أن بادر الفتى إلى فتح باب السيارة، حتى تصرَّف حسينٌ بطريقة سريعة جدًا وأغلق أبوابَ السيارة الأربعة، فالأمر الآن خرج عن السيطرة، وتحوَّل إلى صراعٍ بينهما، فكَّرَ حسينٌ في أن يهربَ من هذا المكان، لكنّه أعرَضَ عن هذه الفكرة عندما تذكَّرَ صديقه.

وعندما أخذ الفتى المدمنُ في الطرق على زجاج السيارة، لم يستطع حسينٌ الوقوف أكثر من ذلك، وقال في نفسه: ”ما هذه المشكلة التي طرقتُ بابي الآن؟“، وحاول التحركُ بالسيارة، ولكن دون جدوى، انتظر أحدًا يساعده، ولكن أحدًا لم يُقدِّم على المساعدة وكأنَّ الناس لا يرونهما، فطَنَ حسينٌ بعد مدَّةٍ أن كَبَّاحة اليد (الفرامل) كانت مرفوعةً، أنزلها حسينٌ بسرعة، ثم تحرَّكَ بالسيارة في غضون ثوانٍ معدودة، واختفى عن الأنظار،

تجوّل حسينٌ بسيارته قليلاً في الشوارع المحيطة بالمنطقة، ثم فكّر في أن يتقابل مع حسنٍ في المكان الذي تواعدا على الالتقاء فيه، وقد لاحظَ حسينٌ مجموعةً من الناس قد احتشدت في المكان الذي التقى فيه الفتى المدمن وهو يطوف بسيارته، وأراد الوقوف للاطلاع على ما يحدث، لكنّه رأى شخصاً يجري نحو سيارته، فاعتقد أن الفتى المدمن قد عاد يُهاجمه مرّةً أخرى، فأصابته حالة من القلق، وشرع في التحرك بالسيارة، وما أن همّ بالتحرك بالسيارة، حتى أدرك أن المُتّجه نحوه هو صديقه حسنٌ، فأوقف السيارة، ونادى على صديقه، فعانقه حسنٌ بفَرَحَةٍ عارمة بمجرد دخوله السيارة، ثمّ قال وهو يتنهد:

- الحمد لله أنك هنا، لا يمكنك أن تتخيّل كم فرحتُ لرؤيتك!

لم يفهم حسينٌ ماذا جرى لحسنٍ، فبادره بالسؤال:

- هل ضايقتك هذا الفتى المدمن أنت أيضاً؟

- عن أيّ فتى مُدمنٍ تتحدّث؟

- ألم تكن تهربُ خوفاً منه؟

- لا.

شَرَحَ حسينٌ إلى صديقه حسنٍ ما وقع له مع الفتى قبل

قليل؛ لظنّه أن صديقه لم يفهم ماذا أراد أن يقول، لكنّ حسناً

لم يهتمّ بما شرحه، بل أخذ ينظر إلى عَيْنَي صديقِهِ ويُخبره كم هو سعيد.

- كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٌ، أَيُّ شَيْءٍ إِمَّا أَنَّهُ جَمِيلٌ فِي أَصْلِهِ
أو باعتبار نتيجه.

فَرَدَّ حَسِينٌ بِقَوْلِهِ:

- لم أفهم ماذا تريد أن تقول!

فَأَضَاءَ وَجْهَهُ حَسَنٌ، ثُمَّ قَالَ:

- إِنْ كُنْتَ قَدْ انْتظَرْتَنِي فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَرَكْتُكَ فِيهِ لِمَزِيدٍ
مِنَ الْوَقْتِ، لَمَّا بَقِيتَ سَلِيمًا إِلَى الْآنَ؛ لَسَقُوطِ إِحْدَى (السَّقَّالَاتِ)
الَّتِي كَانَتْ مَنْصُوبَةً فِي أَحَدِ طَوَابِقِ الْمَبْنَى الَّذِي كُنْتَ مَتَنَظِّرًا
أَسْفَلَهُ، لَقَدْ نَجَوْتَ بِحَيَاتِكَ عِنْدَمَا تَحَرَّكَتَ قَبْلَ دَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ
مِنْ سَقُوطِهَا، وَعِنْدَمَا عَدْتُ إِلَى الْمَكَانِ رَأَيْتُ هَذِهِ (السَّقَّالَةَ)
الْعَمَلِاقَةَ وَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى صَنْدُوقِ شَاحِنَةٍ فَذَمَّرَتْهُ بِالْكَامِلِ،
اعْتَقَدْتُ أَنَّكَ لَا تَزَالُ تَقِفُ هُنَاكَ، فَهَالَنِي الْأَمْرُ بِشِدَّةٍ، وَلَكِنِّي
أَحْمَدُ اللَّهَ أَنْ سَاقَ إِلَيْكَ هَذَا الْفَتَى الْمُدْمِنَ لِيَقِفَ أَمَامَ سَيَارَتِكَ
فَيَجْبِرَكَ عَلَى مَغَادَرَةِ الْمَكَانِ!

وَمَا أَنْ سَمِعَ حَسِينٌ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ سَيَارَتِهِ؛
لِلْبَحْثِ عَنِ الْفَتَى الْمُدْمِنِ، فَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَرَاهُ، وَلَكِنِ الْفَتَى

قد غادر المكانَ واختفى عن الأنظار، وكأنه لم يكن موجوداً منذ لحظات.

والآن تَحَوَّلَت أضواء السيارات في ظلمة الليلِ الحالِك من الحِمَمِ البركانيّة إلى حديقةٍ مليئةٍ بالأزهار والورود الحمراء، وأما أزهار الأفحوان فهي تتلأأ بلونها البهيج الأصفر بين الحين والآخر، وتتقدم السيارات على الطريق وسط هذا البستان الجميل.



سؤال عجيب...!

بدأت الحركة تدبّ في المدرسة الهادئة وسط أشجار الصنوبر، وما أن رنّ جرس الفسحة، حتى تحوّل فناء المدرسة إلى مضمار للسباق بين الأطفال.

صار للطلاب الذين ملّث أنفُسهم من كثرة الدروس مهلةً للجري واللعب، كالأرانب التي وُلدت حديثاً.

وبينما أخذ عددٌ من الأطفال يلعبون ويجري بعضهم وراء بعض، وقف عددٌ آخر منهم في صفّ منتظم أمام بائع الكعك لشراء كعك (الفطائر)، وكان كلُّ ركنٍ من أركان فناء المدرسة يعجُّ بالحياة؛ ففي جهةٍ ترى بعض الطلاب يتحاسبون على ما كان بينهم في الفسحة السابقة، وآخرون يلعبون مباراةً لكرة القدم وكأنها أهمّ مباراة في العام، وفي ناحية أخرى تشاهد تلميذاً يقفُ يتباهى ويستعرض قدراته أمام أصدقائه...

ووسط هذه الضوضاء كان هناك تلاميذ صامتون؛ كان سنان ومحمود أحَدَ هؤلاء التلاميذ، وقد حرصَ كُلُّ منهما على قضاء وقتِ الفسحةِ مع الآخرِ كأنهما أخوان، ولذلك ما أن يُذكر أحدهما في مجلسٍ حتى يتبادرَ إلى الذهنِ صاحبه المُقرَّبُ الآخرُ. كان التلاميذُ الآخرونَ يَرَوْنَ هذين الصديقينِ الحميمينِ دائماً ما يجلسان في أغلب الأحيان في رُكنٍ من أركانِ المدرسةِ يتحدثانِ إلى بعضهما البعض، وكانا يلعبان الألعابَ معاً أيضاً، لكنهما كانا يقضيانِ أكثرَ أوقَاتِهَما في البحثِ عن الأشياءِ الجديدة، حيث كانا مختلفينِ عن أقرانِهَما، وكانت الصداقة التي بينهما من النوع الذي يمكن تناوله في فلمٍ سينمائي.

كانت الموضوعات التي تشغلُ بالَهُما تنصَّبَ في مجال العلمِ أحياناً، وأحياناً أخرى في مجال القضايا العصرية، ثم تبدأ بعد ذلك أبحاثٌ مكثَّفةٌ فيما بينهما، فقد كانا حقاً طفلينِ مختلفينِ عن أقرانِهَما، وكانا يَعشَقانِ إيجادَ أجوبةٍ على الأسئلة التي تَجُولُ بخاطرِهَما.

صَدَرَ عن سنان سؤالٌ عجيبٌ ذلك اليوم؛ إذ نظرَ إلى عيني محمود، ثم قال:

- يا محمود، أليس الله قد خلق كُلَّ شيءٍ في أحسنِ تقويم،

فلماذا خلق الشيطان؟! تردّد هذا السؤال على ذهني كثيرًا دون أن أجِدَ له جوابًا، ولا أجِدُ كذلك أحدًا يُجيبني عليه.

أُصِيبَ محمودٌ بحيرةٍ واندهاشٍ عندما سَمِعَ هذا السؤال للمرّة الأولى في حياته، فقال لصديقه:

- شيءٌ مُحَيَّرٌ فعلاً! من أين خطر هذا السؤال على بالك؟

- إن الله قد خلق جميع خلقه لسببٍ محدّدٍ، فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا خلق الله الشيطانَ الذي عصى أمره؟!

أخذ محمودٌ يفكّرُ في هذا السؤال طوال اليوم، وقال في نفسه: "عَلَيَّ أن أجِدَ جوابًا لهذا السؤال"، فتذكّر أخاه الأكبر الذي يدرّس في الجامعة؛ إذ اعتقد أنّ بإمكانه أن يُجيبَ على هذا السؤال ليريحهُ هو وصديقه سنان.

سارعَ محمودٌ إلى العودة إلى المنزل فورَ خروجه من المدرسة، ثم وصل شقيقهُ الأكبر إلى المنزل بعده بمُدّة قصيرة، فلم يُمهّلْ محمودٌ أخاه وقتًا طويلاً حتى وجّهَ إليه سؤاله قبل أن يخلع ملابس المدرسة، فلم يتعجّب شقيقهُ من سؤال محمود، بل وضع يده على كتف أخيه براحة تامّة، وذهب سوياً إلى المكتبة، وأخذ يبحث بين صفحات كتابٍ قد اشتراه من المكتبة وكأنه يُداعب زهرة أو صديقاً مُقرباً إليه، وبعد

وقت قصيرٍ فاح جواب السؤال من صفحات الكتاب في الغرفة كالنسيم: ”كما أن الصَّقرَ يُطَوِّرُ قُدْرَاتِ العصفورِ على الطيران، فإنَّ الشيطانَ يُطَوِّرُ قُدْرَاتِ الإنسانِ“.

أخذ الشقيِّقُ الأكبرُ نَفْسًا عميقًا بسعادةٍ تُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ اللذة التي يشعرُ بها جدُّه عندما يرتشف رَشْفَةً من فنجان القهوة، لم يفهم محمودٌ كل ما أرادَ شقيقُه أن يُوصِّلَه إليه، ولذلك بادَرَ الشقيِّقُ الأكبرُ إلى تفسير المسألة له؛ كي يَفْهَمَهَا بشكل أوضح، فقال له:

- يحتاج الإنسانُ إلى شيءٍ يُطَوِّرُ مهاراته وقُدْرته؛ كي يَزْتَمِّي من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى، فإن لم يُهَدِّدِ الصقرُ العصفورَ، لَمَّا صار للعصفورِ قدرةً على الطيران بهذه المهارة، وَلَمَّا صارت مهاراته متطوِّرةً إلى هذه الدرجة، وبالطريقة ذاتها، فإنَّ الوَساوِسَ التي يُوسَّوسُ بها الشيطانُ إلى الإنسانِ تَرْفَعُ من قدراته وإيمانه بالله، فهو أمرٌ شبيهٌ باللقاح الذي يُحقِّنُ به جسد الإنسان؛ لمساعدته على مقاومة الأمراض.

تَعَجَّبَ محمودٌ كثيرًا من المعرفة التي يتمتَّع بها شقيقُه الأكبر، وبدا كأنَّ هذه الكلمات قد سَحَرَتْه، وحينما أغلق أخوه الأكبر الكتابَ أفاق من جوِّ الخيال الذي عاش فيه، وكان

لا يستطيع الوقوف على قدميه من السعادة، كان عليه أن يُخبر صديقه سنان بما علمه من إجابة عن سؤاله، ولكن يجب عليه الانتظار لليوم التالي، وعندما أيقن أنه لن يستطيع كتمان جواب السؤال بداخله حتى الصباح، استأذن والدته في الخروج. كان قلبه يخفق كالعصفور فرحاً، ولم يكن يستطيع الوقوف في مكانه من شدة الحماس، وأخذت العبارات التي قرأها شقيقه الأكبر عليه تدور داخل قلبه الصغير، وطار حتى وصل إلى بيت سنان، فلم يدرك متى وصل، ومتى لمست يده جرس الباب، ووجد نفسه في نهاية المطاف في غرفة سنان.

نقل ما سمعه من شقيقه إلى صديقه الصديق، وازدادت فرحته بهذا الحدث، وأما صديقه سنان فقد شعر بسعادة وسرور شديدين لحصوله على إجابة لذلك السؤال، ولزيارة صديقه له في غسق الليل.

لم يأتبه محمودٌ بظلمة الليل الحالك بينما كان عائداً إلى منزله؛ لأنَّ نور المعرفة قد أذفأ قلبه ومشاعره، وأثار له طريق العودة.



حلوى الصيف

كان المتجر يشهد كلَّ صباحٍ ترتيبَ الأعمال بالطريقة ذاتها، وأما أنا فكنْتُ أدخُلُ المتجرَ بعدما أفتح الباب وأسمِّي الله، ثم أبادِرُ إلى فتح شُرَفِ الباب العالية كحصون القلعة بصعوبةٍ بالغة، وبعد ذلك أتناوُلُ الممسحة؛ لأبدأ في تنظيف الأرضية، وفي تلك الأثناء يقوم الأخ الأكبر عثمان بإدخال الخبز الذي تَرَكَه الفَرَّانُ أمام المتجر وقت الفجر، ثم يقوم بقراءة الصحف اليومية، كان العملاء يأتون إلى متجرنا عادةً في المساء؛ بسبب حلول شهر رمضان، ولهذا السبب كان المتجر يخلو من العملاء وقت الصباح.

وأحياناً، وبينما أنهي أعمالَ تنظيفِ الأرضية بالممسحة، إذا بأحد العملاء يدخل وحذاؤه مُتَسَخِّخٌ ويسير به وسط المكان الذي

نظفّته للتوّ، وكنت أغضب بشدّة في مثل تلك الحالات، ولكن لم أكن أستطع أن أقول: ”ارحموني! اصبروا قليلاً حتى تجفّ الأرض، ثم ادخلوا كيفما تشاءون!“؛ لأن العميل دائماً على حقّ... وبينما كنت أنظّف المكان بالممسحة، سمعتُ صوتَ الباب، وحينها كنت سألقي الممسحة على الأرض للتعبير عن غضبي من دخول هذا الشخص قبل أن تجفّ الأرضيّة، حتى لمحت ذلك الشخص، فإذا هو العمّ عادل الذي كنت أعشق وجهه البشوش، إلى الحدّ الذي كنت أظنّ معه أنني إذا نظرتُ إليه من الخلف فسأجد وجهًا ضحوكًا أيضًا.

وكانت السمّاعة التي يستخدمها لضعف حاسة السمع لديه تزيد من لطفه.

كان العمّ عادل يعيش في بيتٍ صغيرٍ في أحد أركان الشارع، وكان يقوم بعمليات تسوّق محدودةٍ للغاية من متجرنا، غير أنه لم يكن يهمل شراء حلوى الصيف، وربما كانت هذه الحلوى هي تسليته الوحيدة.

كان العمّ عادل يعيش بمفرده، وكأنّه قد فُرِض عليه ذلك فرضاً، بيد أنني سمعت ممّن حوله أن لديه ابنةً، حتى أنني رأيت ذات مرّة امرأةً تنزل من سيارةٍ اقتربت من بيته، ثم دخلت المنزل،

وعندما شاهدتها تدخل البيت، قلتُ في نفسي: ”لا بدّ أن تكونَ هذه ابنتُهُ التي سمعتُ عنها“.

كان العمّ عادلٌ يُمارس مهنةَ تلميع الأحذية أمام مقهى الحيّ؛ لعدم كفاية راتبِ تقاعدهِ متطلباتِ الظروف المعيشية، وكان عندما يعبرُ الشارعَ، وعلى ظهره صندوق تلميع الأحذية، يبتَهجُ الناسُ والمارةُ بفضلِ البسمةِ التي تملو وجهه، لدرجة أنني كنتُ أقفُ أحياناً لمشاهدته.

وكان صاحبُ المتجرِ الأخ الأكبر عثمان يُحِبُّه؛ ولهذا السبب كان يداعبه أحياناً، وقد قال عثمان في إحدى هذه المداعبات:

- خيراً، يا عمّ عادل، هل لديك وليمة على الإفطار؟
عدّل العم عادل وضعيّة السّماعَةِ التي يستخدمها، ثم قال:
- نعم، ماذا قلتُ؟

رفع عثمان صوته، ثم كرّر ما قاله:

- قلتُ: هل تشتري الحلوى لوليمةٍ رمضانيّةٍ؟
كان صدى الصوت يتردّد داخل المتجرِ أو أنّه خُيِّل إليّ ذلك، وعندما لم يلقَ عثمانُ ردّاً، نظر صوبَ العمّ عادل من فوق الميزان.
ردّ العمّ عادل على السّؤال بصوت خَفِيفٍ، إلى الحدّ الذي لم أتمكّن معه من سماعِهِ لا أنا ولا الأخ الكبير عثمان؛ ذلك

لأن الكلمات كانت مُقْتَضِبَةً^(٨)، ودمعت عيناه بعد سماعه تلك الكلمات، وسالت الدموع منها مُنْهَمِرَةً كالأمطار الغزيرة من غير صوت...

أحس الأخ الكبير عثمان أنه قد قال شيئاً خطأً، فبادر إلى لفّ قطعة الحلوى في ورقة على الفور، وانتقل إلى جوار العم عادل، وقال له:

- ماذا حدث يا عم عادل، هل قلت شيئاً خطأً؟
سمع العم عادل السؤال هذه المرة، لكنه أجاب على السؤال بسؤال:

- متى بدأ شهر رمضان؟
ظهرت على الأخ الكبير عثمان علامة عدم فهمه لما قاله العم عادل، فوضع يده على كتفه، وقال:
- بدأ منذ سبعة أيام.

أشار العم عادل إلى سماعته التي يرتديها، وقال:
- آه يا ولدي! لم أعرف أن شهر رمضان قد بدأ.
وكان العم عادل يبكي بكاءً حاراً، ولا نعلم سبب ذلك، على الأغلب بسبب عدم علمه بحلول شهر رمضان المبارك.

(٨) مقتضبة: مُقْتَضِعَةٌ غير واضحة أو مفهومة.

لم يكن يفهم كيف لا ابتته الوحيدة التي ضحى بنفسه
 من أجل تربيتها أن تهجره، وتقيم في بيت آخر كأنها أجنبية عنه؛
 فقد كان العم عادل -الذي تُعَبِّرُ قطعةً من الحلوى هي مصدرُ
 سعادته ورفاهيته- أُجبرَ على العيش وحيداً حتى لا يُمَثِّلَ عبثاً
 على ابنته.

فلو عَرَفْتُ هذه الفتاة كم يحملُ لنا الآباء والأجداد من الخير
 والبركة، وكم يَرْفَعُونَ عَنَّا من الابتلاءات والمصائب، ما اقْتَرَفْتُ
 هذا الفِعْلَ وَتَرَكْتُ والدها على هذه الحال!

كما أن قِطْعَةَ الحلوى الموضوعه على منضدة البائع بدت
 وكأنها فتانٌ لا يَزْغَبُ في أن يلعبَ دَوْرَه في الحكاية؛ لا شيء إلا
 لأنها قد فَقَدَتْ بذلك قِيَمَتَهَا وطَعْمَهَا اللذيذ المعهود لدى الناس.



الغنى... غنى النفس

استيقظ فخرُ الدين هذا الصباح مُثَعَّبًا كما هو الحال في كلِّ صباح، ورفع عينيه عاليًا ناظرًا إلى السقف، ومُثَمِّنًا النظرَ في الضوء النافذ إلى البيت.

كان ضوءُ الشمسِ يُنْقِذُ من الفراغ الموجود بين لِبْنَاتِ بيته الصغير إلى الداخل، وكانت ظِلْمَةُ الليلِ تتسرَّبُ كذلك من الفراغ ذاته كالأمطار، وكان بعض الطيور يدخلُ أيضًا من هذا الفراغ، وكان فخر الدين كلِّما فكَّرَ في الضرر الذي ربَّما يلحق الطائر إذا دخل بيته ينزعج ويشعر بقلقٍ شديد؛ حيث إن بعض الطيور كانت تصطدم بالجدران؛ بسببِ الظلامِ الدامس، ثم تقفُ عاجزةً في إحدى الأركان.

كان فخر الدين يعيش منذ شهور في هذا البيت الصغير الواقع داخل ساحة مُعدَّةٍ للإنشاء، وهو راضٍ لا يتأفَّف من هذه المعيشة، ولم يشتك من إقامته في الغربة وعدم قدرته على رؤية أسرته، ولكن كان هناك شيء آخر يشغل بالَه ويحزِّنه، وهو النظرة الدونية

التي ينظر بها الناس إليه، فكان قلبه يَغْتَصِرُ ويقطُرُ دمًا من جرّاء تلك المعاملة التي كان الناس يعاملونه بها، وكأنّه لا قيمة له في هذه الحياة؛ حتى إن بعضهم كان يناديه وكأن ليس له اسم، ويقول: ”هيه! أنت أيها الشخص الذي يقف هناك! نعم، أَقْصِدُكَ أنت، تعال إلى هنا!“.

كان يستيقظُ في الصباح الباكرِ مهما كانت الظروف، ثم يجلسُ على الأريكةِ التي صنعها من أخشابِ البناء للحظاتٍ حتى يزولَ عنه تعبُ العمل، ثم يتناولُ وجبةَ الإفطار.

كان الموقدُ الذي يعمل بأنبوب الغاز يُعْبَرُ المطبخ في بيت فخر الدين، وكان إفطاره عبارةً عن بضع زيتوناتٍ وقِطْعٍ من الخبز وأحياناً كان يتناولُ بيضاً مسلوقاً، وعندما يشربُ عدّة أكوابٍ من الشاي كان هذا يعني أن يومه قد بدأ، وما أن يتناول الإفطار حتى يبدأ عمله مباشرةً ويستمرّ إلى المساء بين لَبَنَات الطوب والملاط^(٩) والمساحل^(١٠) والرمل والحصى.

يعمل فخر الدين في هذا المكان منذ شهور، وقد أَحْبَبَ العاملين باسمه أكثرَ من مرّة، لكنهم رغم ذلك لا يزالون يُخطئون

(٩) الملاط: الإسمنت أو الطين المستخدم في البناء.

(١٠) المساحل: جمع مسحلة، أي: المنخل.

في التلَفُظِ باسمه وينادونه بأسماء: "نور الدين" و"خير الدين" و"كمال الدين"، لم يكن فخر الدين يهتم بكلّ هذه الأشياء، لكن ما كان يحزن قلبه ويدفعه أحياناً إلى البكاء هو أن يناديه أحدهم بقوله: "يا...! نعم أنت، تعال إلى هنا!" باستكبار واستعلاء، ويبرّر ذلك بقوله: "لقد نسيْتُ اسمَكَ".

كان يبكي كثيراً بسبب هذا الأمر، ويقول: "لَدَيَّ اسم هو فخر الدين"، ويستمرّ أحياناً في البكاء حتى الصباح، كانت نبرة صوت بعض الأشخاص وقسوة إشارات أيديهم وتجسّباتهم مصافحتة يُشعره كذلك بالحزن والضييق الشديدين.

أثار هذا الأمر كثيراً من الأسئلة ليس لها أجوبة لديه، وشغلت عقله حتى الصباح، كان يحاول دائماً أن يعثر على الفرق بينه وبين الأشخاص الذين يعاملونه بهذه الطريقة، لكنّه لم يكن يعثر على الجواب المقنع، فيحدّث نفسه قائلاً:

- لقد ولدته امرأة، وأنا أيضاً... لديه أذنان، وأنا أيضاً... لديه قلب يمكن أن ينجرح، وأنا أيضاً... كلانا يضحك ويمشي ويغطّس وينام... ويمرض ويجوع ويشعر بالبرد... كلانا إنسان... كلانا لفّه أهله بقمّاطٍ أبيض عندما وُلد، لكن الآن نرتدي ألواناً

مختلفة من الألبسة، فماذا تغير غير هذه الملابس؟! هل هذا يستدعي منا أن نفقد إنسانيتنا؟!

لم يكن فخر الدين يشعر بهذه المشاعر السلبية في نومه أو صلاته؛ حيث إنه لم يكن هناك أحد يُعامله وكأنه مجهول الهوية، أو يناديه ”يا...، أنت أيها الشخص!“.

كان يشعر بسعادة غامرة في صلاته، ويُحسُّ كأنه مدعوٌّ إلى زيارة سلطانٍ في قصره، لم يكن يرغب في انتهاء الوقت الذي يُؤدِّي فيه صلاته، فمالك كل شيء في هذا الكون يستقبله في حضرته وهو يرتدي ملابس ملطخة بالملاط، وهذا ما يشعره براحة نفسية.

سيطرق أصدقاؤه باب بيته الصغير بعد قليل يدعونه إلى العمل؛ لبدأ كفاحه من جديد.



الرضا مفتاح السعادة

كان صوتُ الرياحِ المتسرَّبةِ من فراغاتِ الزجاجِ يؤذي مشاعرَهُ، بينما عيناه شاردتان تمامًا في القلم الذي يمسكه بيده. كانت روحه تقفز من بين الخطوط السوداء للقلم من حرف إلى حرف، وتقفُ عندما تصلُ إلى النقاط، وتنزلُ أسفل الفاصلات، وعندما يظهر أمامه قوسانٍ كان يشعر بالخوف كالطفل الصغير الذي يخشى أن يُكْمَلَ أكل حلوى التفاح التي يمسكها؛ ذلك لأن علامات الإشارة التي تَقِفُ على الورقة كالسيف كانت تُحاولُ ثَقْبَ الورقةِ وطَعْنَ قَلْبِهِ بَنُضْلِهَا الحادِّ، ولهذا السبب كان يرغبُ في إغلاقِ جميع الأقواس التي فتحتها، لكنَّ المشاعرَ الموجودةَ داخلَ الأقواس المفتوحة كانت تُحسُّ بالبرد في لهيبِ البركانِ الثائر.

لم يستطع التحمُّلُ أكثر من ذلك، فألقى القلمَ على المنضدةِ وسطَ الأدواتِ المبعثرةِ الموجودةِ عليها، ورغب في أن يلقي بنفسه إلى الخارج؛ ليلتحق بالزحام الموجود في الشارع.

ارتدى إحدى ذراعي سترته، ثم نزل مسرعاً على السُّلم
كالفراشة التي تطير، وعندما خرج إلى الشارع، بدأت عيناه تبحثُ
عن شيءٍ تافهٍ؛ كي يُثيرَ أعصابه.

وبينما كانت الكلمات القاسيةُ تقطُفُ من أغصان أشجار
الدموع واحدةً تلو الأخرى، لم تخرجْ دمعَةٌ واحدةٌ من المحيط
الذي بداخله.

إنه لا يزال يبحثُ عن السؤال الذي يتردَّدُ في ذهنه بينما يسيرُ
في الطريق.

كانت الأسئلةُ كالإبرة التي تَخْزُ قَلْبَهُ، وتُسْعِرُهُ بِأَلَمٍ كبيرٍ،
أسئلةٌ كثيرةٌ مُتتاليةٌ تبدأ بالسؤال: ”لماذا لا يكون لديك حياةٌ أنت
أيضاً كالآخرين؟“، وتتزاحمُ الأسئلةُ في ذهنه: ”لماذا لم تصبح
غنيّاً إلى الآن؟“، ”لماذا لا تمتلكُ كنوزاً وراء جبل قاف؟“،
”لماذا...؟! لماذا...؟! لماذا...!؟“.

انهالتِ الأسئلةُ من عقله إلى عينيه، ثم من عينيه إلى كُرَةِ
صغيرة من البورسلين (البليّة)^(١) موجودة على الأرض، تذكرُ
عندما كان طفلاً صغيراً لم يكن يأكل ولا يشرب ويلهثُ وراء

(١) البليّة: كرة زجاجية أو برسلانية صغيرة يلعب بها الأطفال.

تلك الكُرَات، وكان يسعى لامتلاك أكبر قدرٍ منها بغضّ النظر عن اتساح يديه وجيوبه بسببها.

لا يشعر الآن بقيمة تُذكر لهذه الكرات التي كانت تُمثِّل قيمةً كبيرةً له عندما كان صغيراً... رَكَلَ أحلامه وكذلك الكُرَات الموجودة على الأرض والمضيئة في ظلمة الليل، كَبُرَتِ الكرة المتدحرجة في قلبه لتصيرَ مثْلَ كُرَّةِ الانهيار الثلجي، ثم سقطت في مجرى الصرف.

ظهر ظلامٌ مجرى الصرفِ بشكلٍ مختلفٍ في عينيه؛ بفضل الضوء الغريب الذي انعكس من واجهة المتجر الزجاجية، بدأ بالتفكير في الواجهة التي تبعثُ الضوء، ثم انتقل للتفكير في تماثيل العرض التي لا تتحرَّك وهي مُغلَّفة بأوراق الصُّحف؛ الأمر الذي أثار تعجُّبه واندعاشه، فقد غلَّف العاملون في المتجر تماثيل العرض بأوراق الصُّحف لعدم وجود ملابس، استرعى انتباهه عندما لاحظَ عيني تماثيل العرض تبدو وكأنها تتحرَّك.

نظر حوله ليتأكَّد من رؤية شخصٍ آخر لهذه التماثيل، ثم فركَ عينيه وهمَّ بمغادرة المكان إلى أن رأى صاحب المتجر يدخل الواجهة الزجاجية وهو مُمسِكٌ ببعض قطع الملابس، ركَّز أفكاره الشاردة على صاحب المتجر وهو يُلبس تماثيل العرض

الملابس بسرعة كبيرة، وكان ينظر إلى هذه التماثيل وهو لا يفهم بالضبط لماذا يشاهدها!

بدأت أشياء غريبة تحدث في الواجهة الزجاجية للمتجر؛ فما أن ألبس صاحبه تماثيل العرض الملابس، حتى توقف مشهد الفلم في تلك اللحظة، وبقي تماثيل العرض والشاب في المشهد، وكأن الوقت والرياح وحتى حركة المرور المزدحم قد توقفت. خلع تماثيل العرض الملابس من على جسده بسرعة دون أن تطرف عيناه الجامدتان بينما كان الشاب ينظر إليه، وألقاها على الأرض مُتَذَمِّراً، فالشاب الآن يسمع صوت التمثال وبدأت عبارات الشُحْط تخرج من التمثال الواحدة تلو الأخرى:

- أهذا الذي وَجَدْتَهُ مناسباً لي؟ لي أنا؟!

- ...

بيد أنني أزاوُل هذا العمل الصعب، ولا أبخلُ بوقتي ولا جهدي من أجل إنجازهِ، فهل هذه هي القيمة التي تمنحني إياها؟!

وفي تلك الأثناء بادَرَ صاحب المتجر إلى دخول واجهة العرض الزجاجية؛ من أجل أن يرى منظرَ الملابس التي أَلْبَسَهَا

تمثال العُرض، وعندما شاهد الملبس وقد خُلعت عن التمثال
وطُرحت أرضاً، سأل بشكلٍ عفوي:

- مَنْ فَعَلَ هذا؟

فأجابه التمثال بجرأةٍ لا يتمنّع بها بعض البشر بقوله:

- أنا مَنْ فَعَلَ هذا! هل لديك اعتراض؟!

- أأنت مَنْ فَعَلَ هذا؟

سيطرت حالة من التكبر على التمثال، وقال:

- بالطبع أنا من فعل هذا، انظر إلى هذه الخِرق التي ألبستني
إيّاها وأنت لا تُقدِّرُ المجهود والوقت اللذين أبذلُهما من أجل
متجرك! هل أشبه تماثيل العرض الموجودة في واجهات المتاجر
الأخرى؟ لماذا لا أُمثِّلُك ما يمتلكون؟

لم يكن صاحب المتجر أو تمثال العرض يرى الشاب الذي
يتابعهما من أمام واجهة المتجر وهو ملتصقٌ بالزجاج كالقطة،
لَوْحَ الشاب بيده عدّة مرّاتٍ على أمل أن يلاحظاه.

ما قاله تمثال العرض يُشبهه صوت الشاب وكلماته، فتنبه
الشاب وتساءل ألم يكن هذا التمثال يشبهني؟

تواصلت المشاهد بشكلٍ سريع، ورفع التمثال صوته،

وقال:

- لماذا لا تنفذ رغباتي؟ فلماذا أنا؟! لماذا...؟!

فأجاب صاحب المتجر على السؤال بطريقة جميلة وهادئة
للغاية:

- انتظر دقيقة! عن أي بضاعة وملابس تحاسبني يا ترى؟
وكيف تجزؤ على التحدث بهذه النديّة وكأنك مثلي وأنت
لا تملك أي شيء ملكية خاصة؟ فلا تنس أنك بكل ما لديك
تعتبر من ضمن بضعتي التي أملكها!

وصل المشهد إلى قمة السخافة في عبارات التمثال
الاعتراضية المضحكة وحركاته الهزلية؛ الأمر الذي أضحك
الشاب المتفرج الذي استفاد من هذا الفلم دون أن يكمل
مشاهدته، وفهم كم كانت أفكاره خاطئة.

وفطن إلى أن حالته بسيطة للغاية، مثل طفل يعلق ذهنه بعدد
من الكرات الصغيرة الملونة، يجري وراءها ويبيكي لفقدانها.
تحوّل الشاب ببصره إلى مجرى الصرف الذي سقطت فيه
الكرة، فلاحظ أن الجميع قد تجمع هناك، لكن لم يلحظ أحد
أنه استيقظ من لعبة خيال الظل التي سبح في فضائها للحظات.
وبينما كان الرصيف يتناغم مع الأشعار، ومصابيح الليل
تنافس مع بعضها البعض، فهم بكل كيانه أن كل شيء جميل

جداً في هذه الحياة، اعشّق... وابتهج... علت وجهه بسمّة،
ورأى كراتِ الزجاج التي أخذ يجري وراءها في منامه ليلاً حتى
الصباح.

ضحك على ما بكى عليه، وبكى على ما ضحك عليه.



ولكن... الباقيات الصالحات

- واحد، اثنان، ثلاثة...
- خمسمائة...، ستمائة...، سبعمائة...
- إنها أعدادٌ كبيرةٌ أليس كذلك؟
- ماذا! لم أفهم...
- لا لا، لقد فهمتَ ولكنك تُظهر عدمَ فَهْمِكَ.
- ...
- على أيِّ حالٍ، أليست كثيرة؟! هل تعلم كم من جهد بذلتُ من أجل أن أجمعَ هذه الكميَّةَ من البليَّة؟ لكنني أريد المزيد منها، أريد أن يكون لديَّ أكثرُ من أيِّ شخصٍ... أريد الكثير والكثير منها...
- ماذا ستفعل بها؟
- هل تقولُ لي ذلك؟ سأفعلُ ما ستفعله.
- ما تجمعه ما هو إلا بلية فقط...

- قد تكون مُحِقًّا، ولكن هذه البليَّةُ تحمل قيمة كبيرة لي...
إِذَا قل لي: لماذا تجمعها أنت أيضًا؟

- ولكن ما أجمعه هو أموالٌ وذهبٌ، وليس قطعًا من الزجاج
كالتي تمتلكها!

- وما أهمية ذلك؟ فأنا مثلك أحبُّ أن يكون عددها كثيرًا،
وأريد جمع المزيد منها دومًا...

...

وقف الرجل والطفل لوقت طويل، تناولَ الرجلُ حفنة
من البليَّةِ والذهبِ الموجود على الطاولة، وألقاها على الأرض،
ثم نظر إليها وبكى؛ فقد سيطرت هذه الأشياء على حياته.

غادر الطفل الذي كان واقفًا أمامه، وكان هذا الطفل هو
طفولتهُ وقد تجسَّدتْ أمام عينيه بعدما هاجرتْ من الماضي،
وقف أمامه طوال الليل، ووجَّهَ له أسئلةً غريبة للغاية؛ الأمر الذي
دفعه للتفكير لساعاتٍ طويلةٍ.

فكَّرَ في الأشياء التي طالما سعى سعيًا حثيثًا من أجل
جمعها حتى سيَّه هذه، وصَفَّها في صَفٍّ واحد... طوابغ البريد،
والأوراق التي تخرج من غُلبِ العلكة، وأغطيَّة زجاجاتِ المياه

الغازية والبلىة والملابس والأموال والذهب... فلم تَعُدْ هذه الأشياء تُضْفِي طَعْمًا إلى حياته.

بدأ يُعيد حساباته حول الحياة عندما تُوفِّي أقرب أصدقائه أمس الأول، فكَرَّ كثيرًا أثناء مراسم الجنازة، وفي الطريق، وأثناء النوم، وأثناء ذهابه إلى العمل، وأثناء عودته منه.

تَذَكَّرَ العبارات التي تلاها الإمام من كتاب كان بيده بعد أن أَنهَوْا صلاةَ الجِنازة على صديقه، حيث قال: "أنت ضيفٌ في هذه الدنيا، وستذهبُ إلى مكانٍ آخر عند موتك، فلا يمكن لضيفٍ في هذه الحياة الدنيا أن يُعَلِّقَ قلبه بأشياء لن يصطحبها معه وهو مفارقٌ لها، فكما أنك تغادرُ هذا المكان وتخرجُ من هذه المدينة، فإنك ستغادرُ هذه الدنيا الفانية، وإن كان الأمر كذلك فحاول أن تخرج منها عزيزًا"، حاول، حاول، حاول...

لقد أحدثت هذه العبارات دَوِيًّا في صحنِ المسجدِ الرخامي، وفي النافورة وفي جدار المسجد وفي جدار البيت، حتى داخل البِلْيَةِ الزجاجية...

فطن إلى أن الأفكار التي نَمَّاها بداخله غير مُبرِّرة، بكى على كلِّ ما جَمَعَهُ، وعلى الوقت الذي فات...

وقد رأى في مراسم الجنازة أيضاً صفوفاً من النمل الذي يحمل فئات الخبز والبسكويت بانتظامٍ عجيبٍ...

كما رأى الحَمَامَ الأبيض الجميل يطيرُ حتى إذا وصل إلى صفوف النمل التَّهَمَ نملةً وهي تحملُ فئات الخبز، فما كان من النمل إلا أن توقَّف للحظات، ثم ما لبث أن واصلَ العملَ الذي كان يقومُ به من قبل، وكأنَّ شيئاً لم يحدث... وكأن ليس هناك نملة رفيقة لهم قد التهمتِها الحمامة قبل قليل.

فلقد حَطَّمَتْ هذه الواقعةُ الأبراجَ المُشَيَّدة في عَقْلِهِ، لِيُحْلَ مَحَلَّهَا الأشياءَ الحقيقيَّة والضروريَّة.

وهكذا يُشَبِّه النملُ الإنسانَ؛ فكما أنَّ النملَ يصطَفُ في صفوفٍ منتظمةٍ، فكذلك الإنسان يصطَفُ في صفوفٍ منتظمةٍ... وحينما تأتي اللحظة الفارقة يتركُ كلُّ فريقٍ ما جَمَعَهُ في هذه الحياة الدنيا ويغادرها...

فما كانت تقومُ به النملةُ هو مهمَّة ذاتُ قيمةٍ أُسِنِدَتْ إليها، فكانت تقومُ بأدائها على أكمل وجه، ولهذا السبب فما كانت تجمعُه هو ذو فائدةٍ أيضاً، فكلَّ قطعةٍ من فئات الطعام كانت تجمعُها لمشاركة مثيلاتها من النمل في الأكل والاستعداد لفصل

الشتاء، وتنظيف الطبيعة... فما كانت تقوم به النملة هو وظيفتها في هذه الحياة...

كانت البليّات الزجاجية تعني له أهمية كبيرة للغاية وقتما كان طفلاً صغيراً، أما الآن فهذا يعتبر مصدر فكاكة له، فهذه الكرات المضحكة حلّت مكانها قطع الذهب، وما لم تُستثمر هذه القطع الذهبية في أعمال جيّدة، فستصير مضحكة وعديمة الفائدة مثل هذا البليّات.



لَسْتُ وَحْدَكَ!

كان كُلُّ شيءٍ أَسودَ شديد السواد كتلك الحروف... والسماء
والليل والمكان الذي جَرَتْ فيه الحكاية، والشارع الذي انفجر
مصباحه، وواجههُ المباني المطليةُ بالزفت للحيلولة دون تسرُّبِ
مياه الأمطار، وعيون خالد، وقرون استشعار النملة التي اعتادت
على زهرة الرياحِ الموجودةِ أمام زجاجِ النافذة... كُلُّ شيءٍ كان
أَسودَ شديد السواد، لكن لا تسألوا من هو خالد؛ فهو ذلك الفتى
الذي يصيحُ ويصرخُ بصوتٍ عالٍ وسطَ ظلمةِ الليلِ الحالِكِ،
انظروا، فهو لا يزال يصيح:

- عاش البطل... يحيا البطل...

لم يَنْه هُتافُهُ من نافذة البيت حتى ناداه أصدقاه قائلين:
- لا تفعل ذلك يا خالد، مَنْ الذي جاء بفكرة إطلاقِ الألعابِ
الناريةِ في هذه الساعةِ المتأخِّرةِ من الليل؟
- لماذا تتذمَّرُ يا سعدُ؟! نحن نحتفلُ بفوزنا بالبطولةِ مرَّةً

واحدةً في العام يا عزيزي!

- أنت تَتَحَجَّجُ بحججٍ في كلِّ مرّةٍ، لكننا لم نُنَسَّ بعدُ
ما حدث في الأسبوع الماضي.

- هل كنت تريدني أن أصمتَ ولا أُعَبِّرَ عن مشاعري بينما
كان صديقي سيذهب لأداء الخدمة العسكرية؟

- ماذا تقول عن الصخبِ والضجيجِ اللذين تسببتَ بهما
المرّة التي سبقت تلك الواقعة؟

- وهل أصبحتَ أنت موظفًا لتسجيل الأحداث! أهتُك على
هذه القدرة على التسجيل يا صديقي..

- نحن كالركاب الذين يسافرون على متن سفينةٍ واحدةٍ،
فكما أن أحدَ ركّابِ السفينة لا يستطيعُ أن يخرقَ أحدَ
أطراف السفينة ببلطة، ويقول لسائر الركاب: ”ليس لكم الحقّ
في الاعتراض؛ إذ إنني أخرق الجزء الخاصّ بي“، فإنك أنت
أيضًا لا تستطيع أن تقول ذلك.

- يا إلهي! ماذا فعلتُ الآن؟! فأنت كوالدي، لا يفتأ يُسدي
النصح إليّ.

مرّت أيامٌ منذ هذه الواقعة، وبدأت الدراسة الجامعية، ولقد
نسيَ الشبّان الذين يعيشون معًا في المنزل نفسه ما حدث بينهم،
أو بالأحرى فإن خالدًا فقط هو الذي نسي، وذات ليلةٍ بدأت

أشياءٌ عجيبةٌ تحدث في المنزل؛ حيث رأى خالدٌ صديقه طارقاً الذي يُجفّف شعره بمجفّف الشعر وهو جالسٌ على مقَدِّمة السرير في منتصف الليل، يصبح قائلاً:

- يا إلهي! ما هذا الطنين! طارق! يا طارق!

- هل ناديتني؟

ردّ عليه خالد والنوم يسيطر على عينيه:

- لماذا تجفّف شعرك في هذه الساعة المتأخّرة من الليل؟

يا لك من شخصٍ عجيب!

ثم غطّى رأسه بالوسادة، فأدرك طارق الخطأ الذي ارتكبه،

وقال:

- نعم، أنت محقّ.

ثم أغلق المصباح، وخرج من الغرفة، ولم يمضِ نصف ساعةٍ حتى سمع خالدٌ ضجيجاً قادمًا من الصالة أقصّ عليه مضجعه وحرمة من النوم مجدّداً، فنهض من فراشه، وتوجّه صوب المكان الذي يُصدِرُ الصوت الذي أفلقه.

وفي تلك الأثناء، تبادر إلى ذهنه سؤال: ”ماذا سأفعل إذا

كان مَنْ بالداخل ليصاً؟“، وما أن بادر بالرجوع لطلب المساعدة

حتى فُتح الباب، فأوشك خالدٌ أن يفقد وعيه من الخوف، وفكّر

في الصباح بأعلى صوته حتى اكتشف أن مَنْ كان بالداخل هو صديقه كرم، فخرَجَ الخوفُ مِنْ قلبه وسَكَنَ، فقال كرم بحماسٍ كبير:

- يا خالد! تعالَ انظرْ ماذا سأُريك.

- يا كرم!

- اشتريت لوحةً جديدةً، وأحاولُ تعليقها على الجدار، ما رأيك؟ هل تعليقها على هذا الجدارٍ مناسبٌ؟
- ...

حاول خالد إقناع صديقه أن الوقتَ متأخِّرٌ جدًّا، لكن كرمًا أخذ يقول جُملاً وعباراتٍ عشوائيةً حتى علَّقَ اللوحة على الجدار، ثم قال وكأنَّ شيئًا لم يحدث:

- كم هي جميلة!

ثم توجَّه نحو غرفته، وأما خالدٌ فأصابته حيرةٌ مِنْ أمره وسط هذا البيت، فتوجَّه هو الآخر إلى غرفته وهو يَحْكُ رأسه؛ فلم يكن ثمَّةَ داعٍ لمزيدٍ من الانتظار.

ودخل خالدٌ إلى فراشه، وتَمَتَّمَ قائلًا: ”إذا ذهبت إلى الجامعة وأنا على هذه الحالة فلرُبُّما أنام هناك واقفًا!“. وحاول إغماض عينيه كي يخلد إلى النوم، وأخذ يتقلَّبُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً على أمل

أن يغلبه النوم، ولكن دون فائدة، وأحس بالتعب من إغلاق عينيه بإحكام من أجل النوم، وفي تلك الأثناء فُتح باب الغرفة فتحةً صغيرةً، غير أن صاحبنا لم يرغب في الالتفات إلى الباب حتى لا يجافي النوم عينيه مرةً ثانيةً.

وعندما أضاء الشخص الذي فتح باب الغرفة المصباح، استشاط خالد غضبًا، وفتح عينيه، فإذا بسعد هو من دخل الغرفة؛ للبحث عن بعض الأشياء في مكتبة خالد، لا، لم يكن يبحث عن شيء في المكتبة، بل كان يقلبها رأسًا على عقب، بادر خالد بشكل عفويٍّ إلى نزع اللحاف من فوقه، وبدأ يتكلم:

- انتظر فإني أشك أن الوقت ليس منتصف الليل، وأنت أنت لست حقيقيًا، أي أنك استمرازٌ للكابوس الذي رأيته قبل قليل، وستقوم بعد قليل بهدم المكتبة فوقِي، ثم تضحك وتقهقه وتغادر الغرفة.

- عن أي كابوس تتحدّث؟ أريد فقط أن أعثر على كتاب من أجل محاضرة الغد، وعندما تذكرت هذا الأمر، طار النوم من عيني.

- عندما ذهب النوم عن عينيك أتيت لتزعجني في نومي!

بدا الخجل على سعدٍ، واحمرّت وجنتاه، ثم قال:

- ولكن! أنا فقط...

ثم غادر الغرفة قبل أن يكمل كلامه، وأما خالد فقد أمسى لا يستطيع النوم، ولم تمرّ دقائق معدودة حتى سمع صوت الحاسوب قادماً من الصلاة، فاستشاط غضباً.

سمع أصوات قنابل تنفجر وطائرات تطير، أخذ يركض حتى وصل إلى الصلاة، وعندما فتح الباب وجد أصدقاءه سعداً وطارقاً وكرماً يجلسون أمام الحاسوب، ووجدهم لا ينظرون إلى الحاسوب، بل ينظرون إليه منتظرين دخوله من الباب، ويضحكون ويقهقهون.

فكانت هذه الأصوات التي أطلقها أصدقاؤه تعني: "هل نسيت عندما كنت تصرخ فرحاً بفوز فريقك بالبطولة؟"، و"هل تعلمت الآن قواعد العيش في سفينة واحدة؟".

فتح خالد الباب، ولم يستطع إغلاقه مجدداً، فقد أعجب بهذه اللعبة الصغيرة، وشاركهم في اللعب، وبدأ يضحك معهم، وبينما كان الليل والشارع وقرون استشعار النملة شديدة السواد إلى الآن، كانت قلوب خالد وأصدقائه مضيئة وعامرة بالسعادة.



ليلة البدر

لاحظ الصديقان الألعاب النارية التي انفجرت في الهواء أمامهما عندما استدارا إلى الزاوية وهو مشهد جميل؛ حيث تتألق الألوان المبهجة في السماء، فوقفا ليشاهدا هذا المشهد بحماس كبير.

وبادر سائقو السيارات إلى تنبيههما إلى أنهما يقفان في منتصف الطريق؛ مما دفعهما إلى مواصلة السير.

تجاذب الصديقان "بربروس" ومحمد أطراف الحديث فيما بينهما، وانشرح صدرهما لذلك، وأخذوا يسترجعان ذكريات الماضي؛ إلى الحد الذي لم يرغب معه «بربروس» في ركوب أي حافلة من الحافلات العابرة؛ لكيلا يقطع حديث صديقه معه، تأثر "بربروس" باللوحة الفنية التي رسمتها الألعاب النارية في السماء أكثر من صديقه لامتهانه مهنة الرسم، فوخز صديقه محمداً في كتفه قائلاً:

- يا صديقي، في الحقيقة لقد بالغوا كثيراً في إطلاق الألعاب النارية في الهواء.

...

- انظر كيف يطلقونها كأنهم يطلقون قذائف مدفعية، أعتقد أنهم لو وضعوا مزيداً من البارود ربّما تتحوّل هذه الألعاب إلى أسلحة نارية، لكن عليّ أن أعترف أنهم يطلقونها بشكلٍ بارعٍ ومتميزٍ.

صمّت الصديقان عندما سمعا المزيد من الألعاب النارية تطلّقت في الهواء، وأخذا ينظران إليها وهي ترسم أضواءً من الألوان الحلزونية التي تتألأأ في السماء كالثرثرا، عدلّ "بربروس" وضعية حقيبته التي كان يحملها على ظهره، وحكّ لحيته، ثم قال:

- أتدري يا أخي محمد، أنه يجب عليّ أن أعمل لأسابيع طويلة من أجل رسم لوحة كهذه، ومهما استخدمت من الألوان المتنوعة على اللوحة، فإنني لن أستطيع إبداع مثل هذا التأثير أبداً، لكن ماذا يفعل هؤلاء الناس بهذا القدر من البارود، انظر لجمال هذه الألوان والأضواء!

- أنا لا أعترف بذلك يا صديقي، وأؤمن بأن بعض هذه الألعاب يكون من قبيل الإسراف والمبالغة، وكان يجب عليهم

إخبارُ جيرانهم بأنهم سيطلقون تلك الألعاب النارية حتى لا يفزع أحدٌ بسبب أصواتها، نحن لدينا علم بهذا الأمر، ولذلك لا نخاف من صوتها، فماذا يفعل من لا يعلم؟! أتعلم أنني عندما سمعت هذا الصوتَ للمرة الأولى سيطرتُ عليَّ حالةٌ من الرعبِ، وكدتُ أُلقيَ بنفسي على الأرض وسطَ الشارعِ بين السيارات؛ لظنِّي أنَّ ما انفجر إنما هو قنبلةٌ وليستُ ألعابًا ناريةً.

- ...

تابعَ محمدٌ كلامه بصوتٍ منخفضٍ استحياءً من أن يسمعه من حوله في محطة الحافلات:

- شَعَرْتُ بالراحة عندما لم يُعبِّر بقيةُ الناسِ عن ردِّ فعلهم الغاضِبِ تجاه تلك الألعاب النارية، وإلا فإنني كنت سأُلقيَ بنفسي وسطَ الطريق الموحلِ بالطين.

سَمِعَ الصديقانِ رجلًا يضحك ويُقهقه ورائهما، فالتفت محمدٌ ورائه، وقبل أن يسارعَ إلى سؤاله عما دفعه إلى الضحكِ والقهقهة، لاحظَ أن الرجلَ لا يضحكُ على كلامه، بل يضحكُ على كلمات سَمِعها ممن يُحدِّثه عبر الهاتف المحمول، فأدار محمدٌ رأسه إلى الأمام دون أن يُبينَ ما كاد يقع فيه من موقفٍ مضحكٍ.

ضحك "بربروس" على الكلمات التي قالها صديقه محمد، ثم بدأ يشرح الجانب الفني في ألوان الألعاب النارية والأضواء التي رسمتها في السماء، وتحدث عن الألوان والأضواء وتأثيرهما وتناسقهما... ثم أردف قائلاً:

- يا لها من ألوان رائعة! لا تستطيع رسمها ولو جلست من أجلها لساعات، كم كنت أتمنى أن ألتقي الشخص الذي صنع هذه الألعاب النارية لأسأله: أين تُلقيت دراسة الرسم؟ وكيف أتقنت هذا الفن الراقي، وتعلّمت تناسق الألوان وتأثيرها، وغير ذلك؟

تابع "بربروس" كلامه بالحديث عن إعجابه الشديد بهذه الألعاب النارية، ثم صمت عندما أدرك أن الضوء القادم من بين الأشجار يختلف تمامًا الاختلاف عن سائر الأضواء الأخرى، فنظر إلى الناحية الأخرى ليرى الضوء وإن لم يظهر بوضوح بين أغصان الأشجار.

نظر محمد إلى ساعته، ثم قال:

- يا إلهي! لقد تأخر الوقت كثيرًا، لماذا لم تأت الحافلة حتى

الآن؟!

لكنه لم يتلق جوابًا من صديقه "بربروس" الذي تقدّم بضع خطوات إلى الأمام كي يشاهد الأضواء عن قرب، وكأن الأضواء

القادمة من بعيدٍ من بين الأشجار سَمَّرَتْهُمَا في مكانهما، ثم قال
"بربروس":

- انظر يا أخي!

ثم ابتسم، وأكمل حديثه بقوله:

- إن ما انبَهَرْتُ به على أنه ألعاب نارية ما هو إلا البدرُ في
السماء! القمرُ الذي نراه كلَّ يومٍ!

- ...

فلا يوجد فنانٌ في الوجود يستطيع أن يَرْقى بِفَنِّهِ إلى هذا
المستوى من الإبداع الذي يتمتّع به القمر، يَزْغُ كلَّ يومٍ في هدوءٍ
وصمتٍ، ويضيء السماء بنوره المتألئ، وبينما نحن هائمون
بفنّ الألعاب النارية، لا نرى الفنّ الذي خُلِقَ به هذا القمر، انظر
إلى جماله وسطوعه! هذا هو الفنّ الحقيقي... هذا هو الفنّ... كم
أنت عظيم يا رب بخلقك الجميل.

أَهْمَلَ الصديقانِ مُتَابَعَةَ الألعاب النارية، وتَوَجَّها بَنَظَرِيهما
لمشاهدة البدر في السماء، ثم وصلت الحافلة التي كانا ينتظرانها
في المحطّة، فأَخْرَجَتْهُمَا من جوّ الأفكار الذي سيطر على عقليهما،
فقال "بربروس" إلى صديقه محمد: "لا ينبغي لنا نسيانُ هذا الفنّ
الرباني"، وبادَرَ إلى التلويح بيده إلى سائق الحافلة؛ كي يتوقّف
فيركب، ولا تفوته الحافلة.



في التآني السلامة

اختلط صوتُ المذيعِ القادمُ من المطبخ بصوتِ المياه وهي تغلي في الغلاية حتى انتشر الصوتُ في جنباتِ المنزل.
وضعت السيدة فاطمة كمّيةً من جبنِ الماعزِ في المقلاة، ثم أضافت إليها القليلَ من الماء، ثم أغلقتْ غِطاءَ المقلاة، ثم قطّعت الطماطم، وجفّفتْ يديها، قالت لابنها وهي تضعُ أكواب الشاي على الطاولة:

- هل أقطعُ لك بعضَ البصلِ الطازجِ يا نجمَ الدين؟

...

فلم تتلقَ ردًّا من ابنها، فكَرَّرَتْ سؤالها، قائلةً:

- هل تسمعني يا حبيبي؟ انهض من فراشك ودعْ عنك

الكسل!

أحدثت كلمات السيدة فاطمة صدّى في رُواق المنزل كلحنٍ عذب، وبعد لحظات سُمِع صوتٌ من جهة غرفة نجم الدين. كان ذلك الصوتُ إشارةً إلى سقوط نجم الدين من على السرير، أي أنه استيقظ من نومه، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أصدر نجم الدين صوتًا كالطفل الذي فَقَدَ كُرَاتِه الصغيرة ”أف! أف!“.

فمتى تأخّر نجم الدين على الذهاب إلى عمله يغضب وتسيطر عليه حالةٌ من التوتر، ويلومُ والدتهُ بصفتهِ المسؤول الأول عن إيقاظه، بيدَ أنّ والدتهُ المسكينةَ حاولت إيقاظه أكثرَ من مرّةٍ، لكن دون فائدةٍ.

لم يسترخِ نجم الدين بتعبيره عن سخطه وغضبه بكلمات الاعتراض، وفكّرَ في صياغةِ جملةٍ ليقولها لوالدته، لكنّه لم ينجح، ثم قال:

- يا أمي! هل تفرحينَ عندما أعرّضُ للعتابِ من مديري

في العمل؟!

- أنا أحاول إيقاظك منذ ساعةٍ يا بُني، لكنك لم تستمع إليّ، ألم تستيقظ قبل ربع ساعة وجلستَ في فراشك، وقلتَ لي: إنك استيقظتَ من النوم؟ وبينما أنا أعدّ لك الشاي خلدت إلى النوم مجدّدًا.

لم يسمع نجم الدين كلام والدته كاملاً، فنهض وارتدى قميصه وبنطاله اللذين وضعهما على كرسي بجواره منذ الليلة الماضية، ثم مضى مسرعاً إلى الحمام كي يغسل وجهه، وحاول وهو في طريقه إلى الحمام أن يلبس جواربه لكنه فقد توازنه وسقط وتدحرج على الأرض، ثم عاود النهوض صائحاً بأعلى صوته:

- يا إلهي! ما هذا الذي يحدث لي؟!

بادرت السيدة فاطمة إلى إنهاض ابنها من على الأرض، لكنه نهض بمفرده دون مساعدة، وغسل وجهه بسرعة، ثم توجه إلى باب المنزل، فقالت له والدته وهو خارج من البيت:

- هل ستذهب إلى العمل دون تناول وجبة الإفطار؟ انتظر

يا بُنَيَّ، ألن تأخذ معك المظلة...؟

لم تتمكن السيدة فاطمة من إتمام كلماتها، حتى مضى ولدها نجم الدين مسرعاً في النزول من على السلم، وكان عليه أن يسير إلى موقف السيارات الواقع في الشارع الذي يلي شارعته حتى يركب سيارته.

عندما خرج إلى الشارع وجد السماء تُمطرُ بغزارة، فأخذ يسير بحذرٍ في الشارع الذي حولته الأمطار إلى حقلٍ أرزٍ مليءٍ بالطين؛ خشية أن تتسخ ملابسه.

وبينما هو على تلك الحال، إذ بسيارةٍ تمُرُّ مسرعةً بجواره،
فتسبَّب في اتِّسَاخِ ملابسه بالمياه والطين؛ مما زاده سخطاً
وأخرجه عن شعوره.

- عيب عليك يا صاح! لماذا أنت مُتَعَجِّلٌ هكذا؟!

لكن السيارة لم تقف للحظة، فمضى نجم الدين إلى السير
مسرعاً إلى موقف السيارات لركوب سيارته والانطلاق بها سريعاً
إلى إشارة المرور؛ للحاق بصاحب السيارة التي تسبَّبت في اتِّسَاخِ
ملابسه؛ ليقول له: ”إنك تقود سيارتك بغرور، وكأنَّ ليس هناك
مُشاة يسرون في الشارع!“.

ركب سيارته وضغط بعصبية على دواسة البنزين، ولم يَلْحَظْ
المُشاة الذين ابتلَّتْ ملابسه؛ بسبب قيادته السيارة بسرعة عالية،
حتى لحق بالسيارة، وحاول أن يدركها من جهة اليمين لَمَّا عجز
عن اللحاق بها من جهة اليسار، وعندما اقترب من السيارة، نظر
إلى سائقها، فإذا به يرى جاره الأستاذ لطيف، فقال في نفسه:
”إنه جارنا الأستاذ لطيف، هل يُعَقِّلُ ما فعله بي؟ ثم متى جدَّد
سيارته؟“.

ثم بدأ نجم الدين يتفحَّصُ سيارةَ جاره، كانت السيدة أمينة
تجلس في المقعد الخلفي، ولاحظَ نجم الدين سيِّدةً ترتدي غطاءً

رَأْسٍ وَتَسْنَدُ رَأْسِهَا عَلَى كَتِفِ السَّيِّدَةِ أَمِينَةٍ، نَظَرَ نَجْمُ الدِّينِ بِتَرْكِيزٍ أَكْبَرَ لِيَجِدَ أَنَّ هَذِهِ السَّيِّدَةَ هِيَ وَالِدَتُهُ.

لَمْ يَفْهَمْ نَجْمُ الدِّينِ مَاذَا حَدَثَ، فَبَدَأَ يَتَعَقَّبُ سَيَّارَةَ جَارِهِ الَّتِي أَخَذَتْ تَسِيرَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْمُسْتَشْفَى، لِحَقِّقَهُمْ نَجْمُ الدِّينِ عِنْدَ مَدْخَلِ الطَّوَارِيءِ، وَمَا أَنَّ أَوْقَفَ سَيَّارَتَهُ جَانِبًا، حَتَّى وَجَدَ أَنَّ فَرِيقَ الْإِسْعَافِ قَدْ نَقَلَ وَالِدَتَهُ إِلَى دَاخِلِ الْمُسْتَشْفَى، وَوَجَدَ جَارَهُ يَقِفُ أَمَامَ بَابِ الْمُسْتَشْفَى، فَسَأَلَهُ بِقَلْقٍ كَبِيرٍ:

- مَا الَّذِي حَدَثَ يَا أَسْتَاذَ لَطِيفٍ؟
- يَا نَجْمُ الدِّينِ، كَيْفَ جِئْتَ إِلَى هُنَا؟
- مَاذَا حَدَثَ لَوَالِدَتِي؟
- لَا دَاعِيَ لِلْقَلْقِ، حَالَتُهَا لَيْسَتْ خَطِيرَةً، فَوْقَ مَا عَلِمْنَا مِنَ الطَّبِيبِ أَنَّ قَدَمَهَا قَدْ التَّوَتَّ.

- وَلَكِنْ كَيْفَ حَصَلَ هَذَا؟ عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْمَنْزِلِ كَانَتْ سَلِيمَةً وَلَا تَشْتَكِي مِنْ شَيْءٍ.

اصْطَحَبَ الْأَسْتَاذَ لَطِيفٌ جَارَهُ نَجْمُ الدِّينِ، وَسَارَا إِلَى قَسَمِ الطَّوَارِيءِ بِالْمُسْتَشْفَى، فَقَالَ لَطِيفٌ وَهُوَ يَمْشِي بِجَانِبِ نَجْمِ الدِّينِ:

- مَا أَنَّ خَرَجْتُ مِنْ شُقَّتِي حَتَّى رَأَيْتُ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ وَالِدَتَكَ قَدْ وَقَعَتْ مِنْ فَوْقِ السَّلَمِ، رَأَيْتُ يَدَيْهَا مَظْلَّةً، فَقُلْتُ لَهَا:

”ماذا حَدَثَ لك؟“ وقد هُرِعَتْ زوجتي عندما سمعتْ صوتنا، فحملناها سوياً، وأحضرناها إلى المستشفى كما ترى.

فما أن سمع نجم الدين كلمة المظلة حتى فهم أن والدته قد أسرعَتْ حتى تَلَحَّقَ به، وأنها سقطت وأصيبت قَدُمُها لهذا السبب، ثم قال في نفسه:

- يا للهول! ما حدث لوالدتي كان بسبب مظلتني التي نسيتهَا في المنزل.

ولما دخل نجم الدين من باب المستشفى رأى والدته وقد جلست على نَقَّالة، فَرَكَّضَ واحتَضَنَهَا، فقالت والدته مُتَعَجِّبَةً:

- ألم تذهب إلى العمل يا ولدي؟ لقد ابتَلَّتْ ملابسك! نَسِيتِ السيدة فاطمة أوجاعَهَا واحتَضَنْتِ ولَدَهَا، ولم تكن تنتظر شيئاً في مقابل عطفها وحنانها على ابنها، فهي تُعَبِّرُ فحسب عن حُبِّهَا لولدها، ذلك الحب الذي أَلْقَاهُ الله في قلوب جميع الأمهات.

قام الطبيب بفحص قدم السيدة فاطمة، وكتب لها الدواء، وسمح لها بالخروج من المستشفى، فقالت السيدة فاطمة:

- لقد تَأَخَّرْتُ على عملك يا ولدي.

- يا حبيبتني يا أمي، إنه خطئي، سأذهب إلى عملي بعد

أَنْ أَوْصَلَكَ إِلَى الْمَنْزَلِ، وَلَنْ أَبَالِي بِمَعَاتِبَةِ مَدِيرِي إِيَّايَ، فَلَعَلَّ فِي ذَلِكَ خَيْرًا لِي.

كَانَ نَجْمُ الدِّينِ وَوَالِدَتُهُ يَضْحَكَانِ بَيْنَمَا كَانَا يَتَبَادَلَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ فِيمَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْمُسْتَشْفَى كَانَتِ الْأَمْطَارُ قَدْ اشْتَدَّ هُطُولُهَا، أَجْلَسَ نَجْمُ الدِّينِ وَالِدَتَهُ عَلَى كُرْسِيِّ إِلَى جِوَارِ بَابِ مَدْخَلِ الْمُسْتَشْفَى، ثُمَّ سَارَعَ إِلَى رَكُوبِ السَّيَّارَةِ حَتَّى لَا تَبْتَلَّ مَلَابِسُ وَالِدَتِهِ، شَاهَدَتِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ ابْنَتَهَا وَهُوَ يَرْكُضُ، فَلَمْ تُهْمَلْ قَوْلَ: "انْتَبِهْ يَا بَنِيَّ حَتَّى لَا تَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ!"، وَبَيْنَمَا كَانَ نَجْمُ الدِّينِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، أَخَذَ عَقْلُ الْأُمِّ يَتَخَيَّلُ ابْنَهَا كَطِفْلِ صَغِيرٍ يَرْكُضُ أَمَامَهَا.



رؤيا الإمام

هَبَّتْ رياحٌ ساخنةٌ قادمةٌ من البحر على جامع «أَمِينُ أُونُو»،
ومن هناك إلى منحدر «زَيْبُك» ومن ثَمَّ إلى متحف «أَيَا صُوفِيَا» .
كان إسماعيلُ يقف كالحارس في محطةٍ بمنطقة «أَمِين أُونُو»
الواقعة وسط المدينة، ينتظر مجيء والدته، وبينما كان ينتظر
في مكانه ينظر إلى وجوه المارة مُحاولاً نسيانَ حرارةِ الجوّ، رأى
عجوزاً تبدو البسمةُ على وجهها كأنها لا تتأثر بتعب الصيام،
وهذا الطفلُ القادم الذي صام حتى وقتِ الظهيرة، ثم حصل
على مكافأةٍ مائيّةٍ من والده، واشترى بها مثلّجات، فهذا هو يأكل
تلك المثلجات كأنّه يأكلها للمرة الأولى في حياته، ويستمتعُ
بمذاقها اللذيذ، وهذا الفتى الذي يجلس إلى الظلِّ... فيا له من
فتىٍ ماكر... هل تهربُ مني لتتخفَى بظلِّ الجدار؟... إنك تُسبِّحُ
الله بعد الصلاة التي أديتها بسرعةٍ، أليس كذلك؟... ماذا تفعل؟
ما هذا الذي تُفتمِّمُ به شفتاك...؟

وهذه القطعةُ التي نامت على الأرض على وجهها، أنتِ
أيضاً هربتِ من مرمى بصري، مَنْ مِنّا يدري...؟ ربما أنتِ أيضاً

تشعُرِينَ بالضجر؛ بسبب هذا الرجل الذي يُدَخِّن في نهار رمضان لا يَأْبُهُ إلى صوم الصائمين، وتعرضين على هذا التصرُّف بصوت المَوَاءِ كأنك تقولين له: ”لا تفعل هذا يا صاح!“، أنتِ على حق أَيْتُهَا القِطَّةُ... لكنَّكَ من ناحيةٍ أُخْرَى تَتَرَبِّصِينَ من أجل صيد هذا الطائر الموجود في الأمام... انتبهي للسيارة!

وفي تلك الأثناء، مَرَّتْ سيارةٌ مُسرَّعةٌ واستخدم قائدها آلة التنبيه؛ مما أَخَافَ القِطَّةَ والطائرَ وجعلهما يهربان، نظر إسماعيلُ إلى ساعته، ثم خاطب القِطَّةَ بقوله:

- لا تحزني أَيْتُهَا القِطَّةُ اللطيفة، لا يزال هناك وقت طويل حتى الإفطار! انظري، فأنا أَيْضًا أشعر بالجوع، لكن كما قلتُ لك لا يزال هناك وقتٌ طويل حتى الإفطار.

عندما كَرَّرَ إسماعيلُ عبارة: ”لا يزال هناك وقتٌ طويل حتى الإفطار“، سمع صوتًا يجيبه قائلاً:

- مع مَنْ تَتَكَلَّمُ؟

كانت والدته قد وصلت ووقفت إلى جواره، فنهَضَ إسماعيلُ من المكان الذي كان يجلس فيه القُرْفُصَاءُ^(١٢)، ونظَّفَ بنطالَه، ثم قال:

(١٢) القُرْفُصَاءُ: جلسةٌ محدَّدةٌ وهي أن يجلس على إلبتية ويلصق فخذه ببطنه ويحتبي يديه على ساقيه فيمسك ساقيه بالتفاف يديه حولهما.

- هل أتيت يا أمي؟ كنتُ أحاولُ التحدُّثَ مع المارّة عندما
شَعَرْتُ بالمللِ من الانتظار.

- هل حاولتَ التحدُّثَ مع المارّة؟! يا ولدي لا تَقِفْ كثيرًا
في الشمس، انظر ماذا حَلَّ بك! هل أُصِبتَ بضربة شمسٍ عندما
ذهبتَ للوضوء؟!

- لا يا أمي الحبيبة، سأحكي لك ما أريدُ قولَه لاحقًا، هيّا
بنا فلنبحث عن الجامع الذي تريدينه حتى لا تتأخَّر؛ فلم يتبقَّ
إلا وقت قليل حتى ميعاد الإفطار، كما أنني شعرت بالجوع
الشديد، هيّا بنا وإلا سأفقد وَعْبي جوعًا، وحينها لا أدري ما الذي
سيَحُلُّ بي.

قال إسماعيلُ هذه الكلمات، ثم ضحك من اصطحاب
والدته من ذراعها، وبدأ يمشي وهو يقفزُ في الشارع كالطفل
الصغير، فقالت له أمه:

- يا ولدي الحبيب، هيّا نبحث عن ذلك الجامع، لقد قطعنا
مسافةً طويلةً نتمنى أن نجده هذه المرّة.

وبينما هي تتحدّث، قاطعها إسماعيل بقوله:

- يبدو أنه هذا، نعم إنه الجامع الذي نبحث عنه.

بارك الله فيك يا ولدي! هيّا ندخل فندعو أولًا، ثم نفكّر ماذا
سنفعل لاحقًا.

سار إسماعيل برفقة والدته بين البنايات في طريقهما إلى الجامع، عَبَرَا الساحةَ المُحاطةَ بالحجارة البيضاء، ثم اقتربا من الجامع.

كان إسماعيل يطوف بوالدته حول الجامع، وهما يستمتعان بروعة البناء، وعندما اقتربا من باب الجامع وَجَدَا الباب مغلقًا، نظر إسماعيل إلى الورقة المعلقة عند مدخل الجامع، ثم قال وهو نادِم:

- يا إلهي! إن الجامع مغلق؛ لأعمال الصيانة.

فلم تقل والدته السيدة صفيّة شيئًا، وكانت تتضرّع بالدعاء. نظر إسماعيل إلى ساعته بعد أن أنهى الدعاء، فوجد الوقت المتبقي خَمْسَ عَشْرَةَ دقيقة حتى موعد الإفطار، التفت إلى أمه، وقال:

- لقد بقي القليل من الوقت حتى ميعاد الإفطار يا أمي، والجامع مغلق الآن، هيا بنا نرحل.

وفي تلك الأثناء، دخل رجل من باب الساحة، فكّر إسماعيل في كون ذلك الرجل هو إمام الجامع، ترك الرجل الكيس الذي كان بيده، وفتح باب الجامع، كان إسماعيل يركّز نظره على كيس الرجل، حيث كان الكيس يحتوي على بعض أرغفة الخبز

ونحو عشر بيضات، لم يكن الخبز ظاهرًا، بل كانت رائحته تفوح،
أو هكذا كان إسماعيل يعتقد.

دخل الإمام الجامع، وترك الباب مفتوحًا، وبعد لحظات
بدأت تفوح من الداخل رائحة البيض النفاذة التي اشتهاها
إسماعيل ورائحة الخبز، فقال إسماعيل متأثرًا بالرائحة:

- يا لها من رائحة طيبة! إنني أشم رائحة البيض الآن وكأنها
رائحة اللحم المشوي، بل أفضل منه.

وبعد قليل إذ بالإمام يقول لهما:

- تفضّلا.

لم يفهم إسماعيل ووالدته السيدة صفية في البداية لمن
يُوجّه الإمام الحديث، ثم عندما تذكّرا أنه ليس ثمة أحد سواهما
في الساحة، قالوا:

- هل تكلمنا؟ كنا سندعو، ثم نغادر.

- حسنًا، ادعوا، سيرفع أذان المغرب بعد قليل، ثم صبروا
أنفسكما ببعض اللقيمات حتى تعودا إلى المنزل.

دخل إسماعيل ووالدته الجامع بعد دعوة الإمام لهما
إلى الطعام، وعندما دخلا أدهشتُهُما مائدة الإفطار الصغيرة
التي أعدها الإمام، وكان صوت غلاية المياه يُحدث صدى

بين جدران الجامع، كانت المائدة تضم طماطم غُسِلَتْ لِلتَّوْبِ، وقطعاً من الجبن الأبيض، وبعض الزيتون، والبيض المقلّي اللذيذ.

جفف الإمام يديه من الماء بالمنشفة، ثم بدأ يصبُّ الشاي في الأكواب التي كان قد وضعها على المائدة، ثم توجّه بالحديث إلى ضيفيه اللذين دخلا الجامع وهما يشعران بالخجل منه:

- تفضلاً، الأذان على وشك أن يُرفع... لقد أعددتُ بعض الطعام من رزق الله لنفطرَ عليه، ولقد رأيت في منامي أنني أستقبل ضيفين، وقيل لي: أحسنُ ضيافتهما، من الجيد أنكما آتيما.

أثر الصدق والإخلاص اللذان كانا واضحين على كلمات الإمام وتصرفاته في إسماعيل كثيراً، وبعد مدّة قصيرة، أخفى الدهشة التي سيطرت عليه، وجلس على أحد الكراسي، وبدأ إسماعيل يتناول الإفطار بمجرد أن رُفِعَ الأذان على استحياء كالعصفور.

إن ما حدث في الجامع ألقى في نفوس سُكَّان حيّ الفاتح في مدينة إسطنبول الطمأنينة والسكينة والأمان.



صديقنا السمين

أثرت برودة الصباح في جدران الفصل، وكانت سُترات التلاميذ المعلقة تُضفي ضروبًا من الألوان المُتداخلة بين دهان الجدار الأصفر الفاتح والدهان الرمادي الذي لا يُظهر آثار الأوساخ.

كان بعض التلاميذ ممن وصلوا إلى المدرسة مبكرًا يواصلون نومهم في الفصول، بينما كان البعض الآخر يتحدثون فيما بينهم:

- أنا لا أقول ذلك رغبةً في اغتيابه!

- هل سيُسَرَّ إذا سمع ما تقوله؟!

- يا أخي! هل ما أقوله كذبٌ وافتراء؟

- ما تقوله ربما يكون صحيحًا، لكن من الخطأ أن تتحدّث

بذلك، إذا كان ما تقوله صحيحًا فهذا يُعدّ غيبةً، وإن لم يكن

كذلك فيعتبر افتراءً، أي إن كلامك هذا غير صحيح في كل

الأحوال.

وقف أحمد يفكّر قليلاً إثر سماعه هذه الكلمات، فلم

تكن نفسه لتُرضى بهذه النصيحة؛ مما دفعه إلى سوقِ جملةٍ من

الحجج؛ للاعتراض على كلام صديقه، فَقَطَّبَ ما بين عينيه قائلاً:
- أنت الآن جعلتني مُذَيَّباً، أوليس من أتحَدَّثُ عنه صديقي؟!
أعتقد أنك تبالغ في هذا الأمر.

فردَّ أحد أصدقائه:

- الأمر ليس كما تعتقد، سيأتي اليوم الذي تفهم فيه ما أوْدُ
أن أقوله لك.

شعر أحمد أن أصدقاءه مُحِقُّون، لكنَّه في الوقتِ نفسِه
لم يكنْ يرغبُ في إحراجِ نفسه أمامهم، فخرج من الفصل كي
يغسل وجهه، ثم عاد بعد دقائق ووجهه يقطرُ ماءً.
همَّ أحمدُ بدخول الفصل، ولكنه في تلك اللحظة أُصِيبَ
بصدمةٍ كبيرةٍ من جَرَّاء ما سَمِعَه من أصدقائه، فقد قال أصدقاؤه:
”أحمد السمين! إنه صديقنا السمين!“، أَعْرَضَ أحمدُ بوجهه،
ولم يستطع أن ينظرَ إلى تلك الناحية.

قال صديقه هذه العبارة وقد كان يشرح له خطورة الغيبة قبل
دقائقٍ معدودة... نسي أحمد ما قاله قبل قليل، وشعر بالضيق
من أصدقائه لِمَا سمعه منهم، فقد أدرك أنه كان مخطئاً ولكن بعد
أن مَسَّه الأمرُ، وبالرغم من ذلك، فقد استشاط غضباً لما سمعه
من أصدقائه.

فأراد أحمد أن يصيح في وجه أصدقائه حتى يبلغهم أنهم مخطئون، وشرع في النهوض من مكانه، غير أنه أدرك أنهم في الدرس، تَمَّتْ ببعض الكلمات قال فيها: ”سَأَلْتَنِيهِمْ دَرْسًا عندما يرنّ جرس انتهاء الدرس!“، ولم يَنْسُ بِنْتِ شَفَّةٍ، وجلس في مكانه.

وما أن سمع أحمد جرس الدرس حتى قفز فوق مقعده، وعَدَا كالحصان الذي يجري في ميدان سَبَاقِ الخيل، وصاح في وجه أصدقائه وقد تَغَيَّرَ لَوْنُ وجهه واختلَّتْ تعبيراته، وبينما كان ينتظر من أصدقائه أن يعتذروا له على ما اقترفوا في حقِّه، إذا بهم يُكْثِرُونَ مِنْ سُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُ وضحكهم عليه.

وفي تلك الأثناء أخرج أحد أصدقائه الذين شاركوا في الضحك ورقةً من جيبه، وقال:

- هل تعلم ما هذا؟

- لا يهمني الأمر.

- وهل يعقل ذلك؟! سنلعب غدًا مباراة مع فريق من الفصول المنافسة، ولهذا أعدَدْنَا قائمةً بأَفْضَلِ اللاعبين في فَضْلِنَا.

أشار أحمد بإحدى يديه إلى كَرِّشِهِ بعد أن أَدْخَلَ بَطْنَهُ في جَوْفِهِ قَلِيلًا، وقال:

- إذا لماذا تنادونني بأحمد السمين؟

أجابه أصدقائه:

- يا أخي أليس لقبك العائلي "السمين"؟

أجاب أحمد وقد تحوّل لون وجهه من الأحمر إلى الوردى:

- نعم.

تابع صديقه كلامه بقوله:

- كتبت اسمك عندما أعددت قائمة اللاعبين، وعندما

ذكرت اسم أحمد فقط لم يفهم صديقنا سنان عن أي أحمد

أتحدث، وقد آثرنا استخدام لقبك؛ كي لا يحدث لبس بينك وبين

سائر التلاميذ الذين يحملون الاسم ذاته، وقد دخلت الفصل بينما

كنت أقول هذه العبارة.

لم يستطع أحمد أن يسيطر على نفسه عندما سمع هذه

الكلمات، فبدأ يضحك هو الآخر، فهو الآن يضحك مع جميع

أصدقائه، ويقولون بين الحين والآخر: "السمين! سمينا!".



رغباتي أم مسؤولياتي...؟

شعرتُ ذلك اليوم بأن هناك أمورًا غريبة تحدثُ في المنزل، في الواقع، بدأ كلُّ شيءٍ عندما جلسَ أبي يتكلَّم معي، لم أكن قد ارتكبت جرمًا، بل كان موضوع الكلام عن الهاتف المحمول الذي رغبْتُ في أن يشتريه لي والذي ذلك الصباح، قال أبي -وقد اعتلت وجهه تعبيراتٌ جادة-:

- لن أخرجَ قلبَ ابني، بالطبع سأشتريه له.

لاحظَ أبي أنني أنظرُ إليه بنظراتٍ متعجِّبة، فواصل حديثه بقوله:

- وإذا لم أستطع فعلَ ذلك، فكيفَ لي أن أنظرَ إلى وجوه الناس، أيعقلُ أن أكونَ أبًا وأرفضَ تلبية طلبِ ابني الوحيدِ شراءَ هاتفٍ محمول؟

تيقنْتُ بعدما سمعتُ هذه الكلماتِ أن والذي يسخر مِنِّي، حيث قال أبي:

- حتى لو كان الهاتف الذي تريده باهظ الثمن سأشتريه لك؟

وحينها لم يبقَ لَدَيَّ شكٌّ في أن والدي يَسْتَهْزِئُ بي ولن يشتري لي الهاتف، وما أن هَمَمْتُ بأن أقول: ”ولكن يا أبي...“ حتى أخذَ والدي نفساً عميقاً، وتابع كلامه قائلاً:

- إذا قَبِلْتَ العرضَ الذي عرضته عليك سأساعدك كي تشتري الهاتف الذي ترغب فيه.

فَهَمْتُ وقتها أن شراءَ الهاتفِ المحمولِ لن يكونَ سهلاً؛ ذلك لأن العرضَ الذي عرضهُ والدي عَلَيَّ كان كالتالي:

- اسمع يا ولدي العزيز، علينا سداد قيمة فواتير استهلاك الغازِ الطبيعيِّ والهاتفِ والماءِ والكهرباءِ لمنزلنا كل شهرٍ، سأعطيك ثلاثمائة ليرة، والقيمة الإجمالية لفواتير الشهر الماضي بلغت مائتين وخمس وعشرين ليرة، وما سيتبقى من تسديد فواتير الشهر الحالي تشتري به الهاتف الذي تريده.

- لم يكنْ أُمامي خياراً آخر سوى قَبُولِ هذا العرض الذي أَدْهَشَنِي عندما سمعته، أعتذر؛ فقد نسيْتُ أن أقول: إنه كان أُمامي خيار آخر، ألا وهو الإعراض عن فكرة شراءِ الهاتفِ المحمولِ، لكنني لم أكنْ لأَرْضَى بهذه الفكرة.

بدأتْ مُطاردةٌ عجيبةٌ في المنزل عَقِبَ ذلك اليوم الذي تَمَّتْ فيه الاتفاقية، فكلّما رأيتُ مصباحاً مضيئاً في مكان لا يجلس

به أحدٌ أتذكّر الهاتفَ المحمولَ، ومن ثمّ أنهضُ مسرعاً إلى زرّ الكهرباء لإطفاء ذلك المصباح.

لقد تبدل حال أمّي وصار عجيباً في تلك الأيام، وأصبحتُ تجلسُ للحديث مع صديقاتها عبر الهاتفِ لدقائقٍ طويلةٍ وكأنّها لم تكنْ تقول لي فيما مضى: ”في أي أمرٍ تتحدّث مع صديقك منذ الصباح يا بُني؟“، وقد بلغَ ذلك إلى الحد الذي شرحتُ فيه لإحدى صديقاتها عبر الهاتفِ طريقةَ طبخ محشي الملفوف والبادنجان...

عندما يتعلق الأمر بالحديث عن النقاط الدقيقة لطريقة عمل المحاشي، فأنا أيضاً أشعر بالترنح، لكن ليس إلى هذا الحد... هل تعرف كم سعر دقيقة المكالمة الهاتفية؟!

وذاث يوم آخر سمعتُ أمّي تنبّه أبي إلى أنه نسي صنوبر المياه مفتوحاً، وجلس بفرشاة الأسنان أمام التلفاز، فحينها نهضتُ من سريري مسرعاً، فقد كانت المياه تنهمرُ من الصنبور كتدفقٍ مياهِ النهر، ففي الوقت الذي آثرتُ فيه مؤخراً مسح وجهي في الصباح بقطعة قماش مبلّلة حتى لا أسرف في استهلاك المياه، شعرتُ أنني سأفقد الوعي عندما رأيتُ المياه منهمرةً من الصنبور على هذا النحو.

وعلاوة على ذلك، فقد رأيت أخي يجلسُ أمام ألعاب الإنترنت لفتراتٍ طويلة، فسامحته على ما فعله لأنه طفل، لكن كلَّ شيءٍ له حدودٌ... ففي مرّةٍ من المرات قام بلعب لعبة ركوب الأمواج على الإنترنت لمدةٍ عشر دقائق، وحينها جذبْتُ سِلْكَ الإنترنت حتى كاد يخرج من مكانه في الجدار.

- لا، لا يجوز إنفاق النقود بهذه السهولة!

كان أخي الكبير يغسل شعره بالمياه كلَّ ليلة؛ كي يستعمل كريمَ تصفيفِ الشعر، وأخي الصغير ينسى إطفاء المصابيح، وأمي تستخدم غسالتَي الملابس والأطباق... عندما كنت آوي إلى فراشي في الليل كانت هذه الأشياء تَمُرُّ أمام عيني واحدةً تلو الأخرى وهي تُقْضُ عَلَيَّ مضجعي وتسرق النوم من عيني.

وبعد مرور أسبوع على توقيعِي الاتفاقية مع أبي وجدته قد جمع أفراد العائلة في الصالة، يتحدّث معهم حول شيءٍ ما، وما أن دخلتُ غرفتي حتى سمعتُ طوفاناً من القهقهات قادماً من مكان تجمُّعهم.

فمن جانبها، كانت والدتي تحكي لهم ردَّ فِغلي الغاضبِ إزاء مكالمتها الهاتفية الطويلة المتعلقة بمحشي الملفوف، ومن جانبه يحكي أخي الصغير ما فعلته معه عندما كان يستخدم الإنترنت،

وأما والدي فكان يقلّديني عندما ركضتُ نحو الحمام لإغلاق
صنبور المياه الذي تركته مفتوحًا بينما كان يُنظف أسنانه بالفرشاة
والمعجون، وحيثُ أدركتُ أن ما يحدث ما هو إلا مسرحية
جميلة تُهدَفُ إلى إظهار الأخطاء التي ارتكبتها فيما مضى.
لا أكذب حين أقول إن ممثلي هذا العمل المسرحي قد أدّوا
أدوارهم على أكمل وجه، وعلى ما يبدو لي أنه كان هناك الكثير
من الأشياء التي كنتُ أقوم بها في غير موضعها.
أجلتُ طلب شراء الهاتف الذي كنتُ أرغب في شرائه لفترة
طويلة؛ لعدم رغبتني في الوقوع في الخطأ للمرة الثانية.



أنقذني يا دكتور...!

لم تُفْتَحْ بعدُ أبوابُ العُرْفِ المصطَفَةِ في الممرِّ جنبًا إلى جنب، لم يظهر في ذلك المكان سوى ممرضةٍ مناوبةٍ وعاملِ النظافة الذي قام بتنظيف بداية الممرِّ بالممسحةِ بسرعةٍ، ثم توقَّفَ، وتحوَّل بعدها بالسرعة ذاتها إلى الجهة المقابلة، وواصل عملية التنظيف، وعندما انتهى من عمله كانت رائحة المُبَيِّض تفوح في الممر.

فتح عامل النظافة النوافذ الواقعة على جانب الممر حتى تزول هذه الرائحة التي قد تصيب الإنسان بالإغماء، ثم وقف للحظةٍ ونظر خلفه، ثم انطلق لتنظيف الطوابق الأخرى وهو يجرّ رجليه، وبعد أن غادرَ عاملُ النظافة الممرَّ، ظهر رجلٌ عابسُ الوجهِ في نهاية الممر، كان هذا الشخص هو الدكتور ممدوح، ويَتَّضِحُ من تصرفاته أنه إنسانٌ غليظُ الطبع.

عدّلتُ وضعيّة الملفات الموجودة على مكتبي، وقلت له:

- صباح الخير يا دكتور ممدوح.

لكنه لم يسمعني، كرّرتُ ما قلّته، فنظر إليّ نظرة ارتياب،

وقال:

- نعم يا أستاذ إحسان.

- خيرًا يا دكتور ممدوح؟

لكنه لم يُجِبني بشيء، يبدو أن هناك شيئًا غريبًا، وكان احمرار

أُذُنَيَّ وأنفَ الطبيب ممدوح دليلًا على غضبه، وسألني:

- هل تشعر بما أشعر به يا أستاذ إحسان؟

- نعم، كلّفْتُ عامل النظافة قبل قليل بفتح النوافذ حتى تزول

رائحة المبيّض الذي استخدمه، لكن الرائحة كما هي لم تختفِ،

نَبّهْتُ عامل النظافة «عمّ كاظم» ألاّ يستخدم الكثير من المبيّض

في عملية التنظيف حتى لا تتحوّل المستشفى إلى مَغسَلة، لكنه

من الواضح أنني لم أستطع إفهامه.

- ماذا تقول؟ مبيّض؟

...

نظر الدكتور ممدوح إليّ من أعلى نظارته، ثم واصل كلامه

بقوله:

- ما قصدته هو رائحة دخان السيجارة.
- نعم أشعر كأن هناك رائحة خفيفة.
- هل تصفُ رائحة السيجارة القادمة من هذا الملفِ بأنها خفيفة؟! لا أستطيع تكليف العمال بغلقِ النوافذِ منذ يومين حتى تزولَ الرائحة.

فهمتُ حينها أن الدكتور ممدوحًا يشعرُ بالغضب بسبب دخان السجائر، ثم تابع الدكتور حديثه وهو غضبان:

- الناس يفعلون ما أكرهه كرهًا شديدًا ويتعمّدون مُضايقتي.
- وعندما رأيَني أَبْتَسِمُ، بدأ يحكي ما حدثَ معه في الصباح:
- رأيْتُ رجلًا يدخِّنُ السجائر هذا الصباح في محطة الحافلات، فحذرته من هذه الفعلة.
- وهل أطفأ السيجارة؟

- هيهات!

- هل يعقل ذلك؟!

- اعتقدتُ أنه لم يسمعي فكررتُ ما قلتُ: ”يا أستاذ، لو سمحت أطفئي السيجارة، فهناك أطفالٌ صغارٌ حولك“، فقام هذه المرة بمواصلة التدخين وهو ينظرُ في عينيَّ وكأنني أتحدّثُ إلى جدارٍ بجواري وليس إلى إنسانٍ بالغٍ!

غضب الدكتور ممدوح وهو يحكي ما حدث معه كأنَّ الحادثة تَكَرَّر أمامه مرَّةً ثانيةً، فضرب بيده على المكتب، فقلتُ له:

- لله دُرُك يا دكتور، هل أَغْضَبَكَ هذا؟

- لم يقتصر الأمر على ذلك، فعندما تأخَّرت الحافلة ركبْتُ سيارةَ أجرةٍ، وأعتذرُ أني وصفْتُها بسيارةِ الأجرة، فكان يجب عَلَيَّ أَنْ أَصِفَهَا بغرفة الغاز، فكان قائدها قد أَكْثَرَ التدخين، وأغلق الأبواب والنوافذ بإحكام، وانتظرنِي كي أركب السيارة... يا إلهي! اعتقدت أنني سأموْتُ، قلت للسائق: "لو سمحت، أَطْفِئِ السيارة؛ لأنها تؤذيني"، فبادَرَ السائق إلى إلقاء السيارة التي شربها تقريبًا إلى نهايتها من نافذته بعدما قال: "أشعلْتُها قبل قليل، أفأطفئها حالًا...!"

نظر الدكتور ممدوح من النافذة إلى الخارج وابتلع ريقه، وكان يعاني صعوبة في الكلام، وبعد أن نثر العِطْرَ من زجاجة كانت بحوْزَتِهِ على المكتب والأرض، وتابع كلامه قائلاً:

- وكان ما حدث لي غير كافٍ حتَّى أتيت إلى المستشفى لأجد هذا الملف الذي يفوح منه دخان السجائر، الرجل الذي جاء بهذا الملف على وشك الموتِ إلا أنه مُصِرٌّ على تدخين السجائر، هل تعلم يا أستاذ إحسان أنني قلت له مُحَدِّثًا: إننا ربما

نُجْري عملية بتر لذرّاعه وساقه بسبب التدخين، وربما يُضْطَرُّ إلى أن يعيش بواسطة جهاز طبي؟! لكن دون فائدة!

كان الدكتور ممدوح يتنفّس بصعوبة كالسمكة التي خَرَجَتْ من الماء، وكان مَنْخَرًا أنفه يتنفّخان وهو يتكلم، كما كانت عيناه تَجَحَّظَانِ كأنهما سيخرجان من مكانهما، أكمل حديثه بعدما استراح قليلاً:

- أعتقد أنه لو جاء عشرة أطباء محترفين لإقناع هذا الرجل فلن يستطيعوا، قلت له مرارًا: ”يا أخي أنت تموت تدريجيًا، دَعْ عنك ذلك العناد!“، لكن هيهات! أولئك الناس يصرون على الإدمان إصرارًا عجيبًا... فهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً!، ففي حين أننا نتقرّز من رائحة السجائر ولا نستطيع البقاء في غرفة بها دخانها، تجد الرجل يأكل ويشرب ويتنفّس وفمه تفوح منه تلك الرائحة الكريهة...

كانت تعبيرات الدكتور ممدوح تدلّ على أنه حزين على تلك الحال التي وصل إليها ذلك المريض، فكلما يَضِيقُ دَرْعًا مِنْ أَمْرِ ما يحكي بهذه الطريقة، وأما أنا فأسكتُ وأسمعه فحسب، ترك الكلام للحظاتٍ وبدأ الاهتمام بملفّ أمامه، اعتقدت أنه نسيني، لكنه عاودَ الحديثَ ووجهه تعلوه بسمّة قائلاً:

- فما أَعْظَمَكَ يا رسولَ الله...!

ثم صمّت وعيناه تبتسمان، وكأنه في مركبٍ شراعي يتأرجح به بأريحية تامّة في مياهٍ ساكنةٍ، وهو يرسم مدينته الفاضلة، قائلاً:
- إنه لَمَنْ الجنون عدمُ الإيمان بما جاء به النبي ﷺ بعد العلم بهدايته البشرية وإبعادهم عن عادات أكثر سوءاً من التدخين؛ مما يحثُّنا على القول بأنّ الأنبياءَ وحدهم هم القادرون على إنجاز تلك المهامّ الجسام، التي لا ينازعهم فيها غيرهم من الفلاسفة والعلماء ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وفي تلك الأثناء التفتنا نحو الشخص القادم وهو يسأل، وكان ذلك الشخص هو المريض الذي تحدّث عنه الدكتور ممدوح، وقد سبقتُ رائحته إلى المكان، كان يشبه الطفل الصغير الذي يستعدّ لدخول الاختبار بتصرفاته المشينة.

فقال: "تركْتُ الملف قبل ذلك يا سيدي الطبيب ولكن..."
قلت له:

- تفضّل اجلس، الأمر سيطول، لا تنتظر واقفاً هكذا.
أجلستُ المريض الذي كان يبدو متعباً إلى الحد الذي لا يستطيع معه الحديث، واستطاع فقط أن يشكرني بعينه وهو يجلس على الكرسي، صار وجهه شاحباً كدخان السيجارة، وقال للطبيب: "أنقِذني يا دكتور لو سمحت!".



حارس القصر

مع إغلاق جميع الأضواء خَيَّم الصمتُ على كلِّ شيءٍ في المنزل من الصنبور الذي يقطرُ ماءً، إلى صوت المذياع وَقَرَع نَغْلِ الجار فوقنا حتى صرير الجراد^(١٣)، ولقد انقطع هذا الصمت الذي استمرَّ طويلاً بإصدار الباب صوتاً كالصاعقة التي تضرب الأرضَ ليلاً، وكان ذلك الصوت قادمًا من ناحية المطبخ.

سمع أيمن الذي كان مُسْتَعْرِقًا في النوم كبقية أفراد الأسرة ذلك الصوت، فنهض من فراشه، وخَمَّن أن مَصْدَرَ الصوتِ قادم من المطبخ، فآثَرَ الذهاب بنفسه إلى هناك وهو يمشي بِبُطْءٍ وحذرٍ.

وما أن فتحَ بابَ المطبخ حتى وجد شقيقَه "صبحي" يقف عند باب الثلاجة، فقال له:

- ماذا تفعل؟

(١٣) صرير الجراد: صوته.

فأجابه "صبحي" والتوتر يسيطر عليه:

- صَدِّقْنِي يَا أَخِي، أَقُومُ بِذَلِكَ مُضْطَرًّا.

- دعك من هذا الكلام، فقد كدْتُ أَنْ أُهَشِّمَ رَأْسَكَ فِي هَذَا

الوقت المتأخر من الليل.

أخذ أيمن يُقنِع شقيقَه بأن ما يفعله في هذا الوقت المتأخر من الليل خطأ، وهو يحاول إغلاق باب الثلاجة، وبدأ الأخوان يتدافعان أمام باب الثلاجة كأنهما يلعبان لعبةً من ألعاب الأطفال الصغار، اعتقد أيمن أنه لن يستطيع إقناع أخيه داخل المطبخ، ودعاه للانتقال إلى الفناء، أو بالأحرى أنه أَخْرَجَه من المطبخ دافعًا إياه بيديه.

- أشعرُ بالجوع أحيانًا في هذا الوقت...

- كيف يحدثُ هذا؟! هل يمكن لإنسان أن يأكل في هذه

الساعة المتأخرة من الليل؟!

تَأَفَّفَ صبحي وشعر بالضجر، ثم قال:

- في الحقيقة أنا أشتكي من هذه العادة، لكني لا أملك حلاً

للإقلاع عنها، ولا أستطيع السيطرة على نفسي.

- يا إلهي!

وعندما لم يستطع صبحي إقناع شقيقه الأكبر، تَمَتَّمَ بكلماتٍ
قال فيها:

- وهل تعتقد أنني سعيدٌ باستيقاظي في الصباح وفي تفوحٍ
منه رائحةُ الأكل المُتَبَّل؟ ولكن...

نظر أيمن إلى عيني شقيقه بنظرةٍ حادةٍ، ثم قال:

- ولكن، ماذا...؟

- أَسْتَأْذِنُ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ، ثُمَّ أُعَاوِذُ الْأَكْلَ مَرَّةً أُخْرَى.

لم يأخذ أيمن هذه الكلمات التي قالها شقيقه بعين الاعتبار؛
لأنه شاهدهُ من قبل على تلك الحال، ولهذا حاول إنقاذه من تلك
العادة السيئة، مُتَذَكِّراً قول أمه: ”ماذا سيحدث لو زاد وزنُ ابني
قليلاً؟“، وقول أبيه: ”لم يعد بإمكانني إيقاف هذا الطفل عن تناول
الطعام، لا أستطيع ضَبْطَهُ وهو يأكل، حاول أن تُراقِبَهُ يا أيمن
يا ولدي حتى نستطيع السيطرةَ على النَّهْم الذي يتحكم به“، وقد
بادرَ أيمنُ إلى مراقبة شقيقه الأصغر كالمُخْبِرِ السَّرِيِّ بعد تلقّيه
هذه التعليمات من والده، وكان يُؤدِّي مهمَّتهُ بدقَّةٍ فائقةٍ؛ حيث
أَجْلَسَ شقيقه الأصغر على مقعد في الفناء، ثم قال له:

- أنت لا تتناول الطعام، بل إنك جَعَلْتَ الأكل هدفاً لك

في الحياة، فأنت تأكل طوال النهار، ثم تستريح قليلاً عندما تتعب،

ثم تُعاوِدُ مُواصلةَ الأكل، أنتظرُ منك أن تُخَفِّفَ أَكْلَكَ بعد وجبة الإفطار الدسِمة، لكن هيهات! فلقد استَحْدَثْتَ وَجَبَتَيْنِ جديديتين إلى وَجَبَتَيِ الغداء والعشاء، ألا وهما وَجَبَتَا الصباح والعصر.

- أعتقد أنه ليس بهذا القدر...

...

- قد يحدث ذلك أحياناً...

ضحك صبحي وقال ”يا إلهي“.

تابع شقيقه الأكبر أيمنُ كلامه:

- أنت تتناولُ بعضَ الأكلات الخفيفة مع كوب الشاي في المساء، ثم تُكثر من أَكْلِ المُقَبَّلَاتِ وأنت تشاهدُ الأفلام، وتستمعُ إلى الأغاني، وتسيرُ في الشارع، وتذاكِرُ دروسك... لا أدري كيف تفعل ذلك؟! لكنك تأكل باستمرار، أعتقد أنك من الممكن أن تنجحَ في الأكل حتى وأنت تسبح أو تنام! وكلّ هذا لا يكفي، فنذهب إلى المطبخ قبل النوم؛ لتأكل كلَّ ما تجده أمامك!

...

- وإذا قلتُ لك إنك تتواجدُ داخلَ المطبخ أكثر من طاولة المطبخ نفسها، لن أكون كاذباً.

- في الواقع، أدركتُ كم أنني آكلُ كثيراً، لا سيما عندما
نُبْهَتَنِي إلى الأمر، آه على حالي!

لاحظَ أيمن أن شقيقَه بدأ يشعر بالضيق والحزن، فتَلَطَّفَ
في الحديث إليه، وقال له:

- اسمع يا أخي، لقد خَلَقَنَا اللهُ ﷻ في صورة قَصْرٍ مُشِيدٍ،
فحَاسَّةُ التذوق الموجودة في فمك تُشَبِّه حَارِسَ البيت، والخلايا
العصبية كَأَسْلَاقِ الهَاتِفِ المستخدمة لإرسال الأخبار إلى المَعِدَّة،
فإن كان الأكل الذي سيدخل المعدة ليس له ضرورة تقول: ”هذا
ممنوع!“، ثم تَلْفِظُهُ إلى الخارج، وفي الوقت الذي تعتبر فيه
حَاسَّةُ التذوقِ في الفم بمثابة الحارس على باب القصر، فإنَّ
مَعِدَّتَنَا هي المَسْؤُولَةُ عن إدارة الجسد، وإذا كانت قيمة الهدية
الممنوحة للقصرِ وحاكم ذلك القصر تبلغ مائة درجة، فإنه
من المناسب أن يُمنَحَ الحارِسُ الخُمُسَ فقط، ولا يمكن منحه
أكثر من ذلك؛ لكيلا يَعْتَرَّ ويحيد عن الطريق المستقيم، ومن
ثُمَّ يَنْسَى وظيفَتَه الأساسية، فنحن نريدُ منه ألا يسمح للدُّخْلَاءِ
-الذين يدفعون له قيمةً أكبر- بالدخول إلى القصر، أليس كذلك؟
استمع صبحي لكلام شقيقه الأكبر مُصْغِياً إليه بأذنه وقلبه،
ونَهَضَ من على مقعده ثم قال:

- حسنًا يا أخي، لقد استسلمتُ، وأوافق على كلِّ ما تقول،
فأنت قد استعددتَ جيّدًا لتلقيني هذا الدرس؛ من أجل إقلاعي
عَمَّا أَفْعَل، وَتَيَقَّنْتُ أَنَّهُ ينبغي لي مِنَ الآنَ فصاعدًا أن أمتنع
عن ممارسة هذه العادة السيئة.

- بارك الله فيك يا أخي العزيز!

- لو رَغِبْتَ فبإمكاننا تَنَاوُل بعض الفاكهة بينما نحن نتناقش
ثم نأكلُ البقلاوةَ المغمورةَ بالقشطة، وعليها بعضُ الآيس كريم...
يا سلام...!

- ماذا...!

- أَمْزُحُ معك... فأنا أيضًا كنتُ أفكّر في ضرورة أن أمتنع
نفسي عن الأكل المتواصل.

ثم ضحك صبحي مع شقيقه الأكبر الذي كان ينظر إليه
مُتَعَجِّبًا من كلماته التي قالها قبل قليل.

وعندما عاد الشقيقان إلى فراشيهما كان الصمتُ قد خَيَّم
على المكان، أخذ صبحي يُكرّر عبارة: "لا تَمْنَحِ الحارسَ الكثيرَ
من المكافآت" وهَدِبلُ الحَمَامِ يصدح بين أسطُحِ المنازل،
مُحاوِلًا إخمادَ شعور الجوع لديه، ثم سرعان ما غَطَّ في النوم.



الوسواس القهري

مستلزمات التنظيف الموضوعه فوق السيراميك الأبيض،
والأحواض، والمرايا اللامعة... والصوت الإيقاعي للمياه
المتقطرة من الصنبور غير المُحكَم غَلَقَه...
عَمَّتْ محادثة الصنوبرين الصديقين - اللذين أخذوا موقعهما
بين الصنابير المصطفة جنبًا إلى جنب - أرجاء الحمام الذي كان
يُخَيِّم عليه الصمت:

- ولكن لا يمكن أن يكونَ إلى هذا الحدّ...

- ما الذي حدث مجددًا!

- ألا ترى؟

- لا! لا أرى شيئًا.

- لقد رأيته قبل ذلك، يفتح الرجل المسكينُ الصنبورَ،

ويغسل يديه وخريرُ الماء ينهمرُ.

- وما الغريب في ذلك يا عزيزي؟

لقد استغرقتُ عملية غُسل يديه المَرَّة السابقة تسعًا وعشرين دقيقةً.

- لحسنِ الحظِّ أن هذه العملية لم تستمرَّ لثلاثين دقيقة! صمت الصديقان عندما أَعْلَقَ الرجلُ الصنبورَ، وكانا يُتَابِعَانِهِ بحماسٍ كبيرٍ، جَفَّفَ الرجلُ يديه، ثم هَمَّ بالخروج من الحمام، لكنه سرعان ما تَرَجَّعَ عن ذلك، فعاد لِيَفْتَحَ صنبور المياه مجددًا، غسل يديه مرارًا وتكرارًا... وَتَدَفَّقَتِ المياه من الصنبور مُنْهَمِرَةً... أخذ الصنبورانِ الصديقانِ ينظرانِ إلى الرجلِ وما يفعله بإمعانٍ شديدٍ... ثُمَّ واصلًا حديثهما:

- لقد ظل يغسل يديه لوقتٍ طويلٍ حتى احمرَّت يدها، وحينها توقَّفَ عن غسلهما، رفع يديه صَوْبَ ضوء المصباح، وابتسم وشعرَ بالسعادة عندما تيقَّنَ أن جميعَ أصابع يديه قد تجعَّدتْ من إفراط غسلها بالماء.

- لم يتوقَّف الأُمُّ عند هذا الحد!

- بالتأكيد... إن هذا الرجلُ مصابٌ بالوسوسة القهرية، يعتقد أن يديه غير نظيفتين، ومن ثَمَّ يُعاوِذُ غسلهما مراتٍ عديدة، وما هذا إلا شعورٌ بالوسوسة... فهذه المشكلَةُ تَتَفَاعَمُ كُلَّمَا أَعَارَهَا الإنسانُ اهتمامًا، أما إذا لم يهتم بها فإنها تختفي وتزول، فإذا نظر

إليها نَظْرَةً مُتَعَاظِمَةً تَعْظُمُ، وإذا نظر إليها نظرةً مُتَوَاضِعَةً تَصْغُرُ.
 كان الصنبور الآخرُ على وشكِ الردِّ على كلامِ صديقه حتى
 شَعَرَ بالضيق، وتراجع عن الكلام، وحينها واصل صديقه كلامه:
 - حان الدور على غسل وجهه، ووقتها دخل الحمامَ عاملُ
 النظافة وهو يحمل الممسحةَ في يده، فانزعج الرجلُ من قُدومِ
 عاملِ النظافة، وآثَرَ غَسْلَ وجهه في عَشْرِ دقائقٍ فحسب!
 - وهل هذا يُعْقَلُ؟! هل تَمَكَّنَ الرجلُ المسكينُ من غسلِ
 وجهه في عشر دقائقٍ فحسب!؟

ضحك الصنبور الآخر على كلامِ صديقه.
 وتَوَقَّفَ الصنبورانِ عن متابعةِ تصرُّفاتِ الرجلِ الذي يقفُ
 بالقربِ منهما، لاحظَ الرجلُ أن بعضَ الأشخاصِ قد تَوَافَدُوا
 على الحَمَامِ لغسلِ أيديهم، فأغلقَ الصنبورَ الذي جُنَّ جنونه
 من كثرةِ تدفُّقِ المياهِ منه، ثم خرج من الحمامِ حزينًا كَثِيبًا وكأنه
 دَخَلَهُ منذ لحظات، وكان شارِدَ الفِكرِ لدرجة أنه لم يلحظِ
 الصنبورين اللذين كانا يُتَابِعَانِهِ، ولا خَرِيرِ انهِمارِ المياهِ!

سلسلة حكايات رسائل النور



مجموعة قصص مبسطة مختارة مما ورد في كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، تهدف إلى تعليم أبنائنا وبناتنا الأعزاء قيمنا النبيلة كالإيمان بالله تعالى والأخلاق الفاضلة ورعاية حقوق الآخرين ومعاملة الناس معاملة حسنة.

كما ترمي هذه القصص الجميلة إلى تحسين سلوك أولادنا وتصرفاتهم.

ونريد أن نذكر بأن أولادنا وبناتنا في حاجة ماسة إلى مثل هذه القصص التي تساعد على تنشئة جيل صالح نافع.